كلمات روحية للحياة

القمص لوقا سيداروس

الكتاب: كلمات روحية للحياة
المؤلف: القمص لوقا سيداروس
الطبعة:
الناشر:
المطبعة:

فهرست

١- القديس يوسف البار
٢- فاض قلبى بكلام صالح
٣- جعلت الرب أمامى فى كل حين
٤- مَنْ يَكْتُمُ خَطَايَاهُ لاَ يَنْجَحُ
٥- قدموا أجسادكم ذبيحة لله
٦- سراج الجسد
٧- أعرف حقيقة نفسك
٨- مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي
٩- قوة خرجت منى
١٠- اَلْخَمْرُ مُسْتَهْزِئَةٌ
١١- مَغْبُوطٌ هُوَ الْعَطَاءُ
١٢- اسلكوا بالروح
١٣- العمل الذى أعطيتنى قد أكملته
١٤- لا تدنوا ضربة من مسكنك
١٥- أمور تبدو صغيرة ذات مدلولات كبيرة
١٦- الباب المفتوح
١٧- الثبات فى المسيح

مقدمـــة

بِاسِمِ الآبِ والابنِ واَلرُوح القُدَس إِلَهُ وَاحِدُ آمِين

خبز كل يــوم

تعودنا أن ندرس كلمة الله ونتغذى عليها كل يوم. وكمثل المن النازل من السماء الذى عال به الرب الشعب أربعين سنة، هى مدة غربتهم، حتى وصلوا إلى أرض الميعاد، هكذا تكون كلمة الله تُشبع وتُغنى الساعين نحو الوطن الأفضل.

وهى كما كان المن – جديدة متجددة كل صباح. ويلتقط الواحد منها ما يكفيه لسعى يوم بيوم. ولا يكفى ما التقطه بالأمس لمواجهة احتياجات اليوم.

وأيضاً كما اختبر الآباء الأولون كيف يأكلون الكلمة.. إذ أعطاهم الرب هذه النعمة كما فعل حزقيال وإرميا وداود وغيرهم. اختبروا مذاقة الكلمة وحلاوتها، وأيضاً مُرَّها فى الباطن وتبكيتها الشديد. ثم طعمها الذى كالعسل حلاوة.

وفى عهد النعمة قال القديس بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس مشجعاً إياه على اللهج فى ناموس الرب أن يواظب على القراءة والدرس.. يأكل الكلمة ويُعلِّمها ويستأمن أُناساً أكفاء يعطيهم مما تحصَّل عليه من النعمة بواسطة الإنجيل ليُعلِّموا آخرين أيضاً.

لذلك وجدنا أن نشجع شعبنا على القراءة اليومية والدرس الروحى العميق لكلمة الله، بدون فلسفة أو جدل.. لكى تتحول الكلمة إلى طعام روحى وخبز كل يوم، الذى لا يستغنى عنه السائر فى الطريق. ويتبع التأمل الروحى العميق للكلمة تطبيقها فى الحياة اليومية، إذ تكون النفس قد تشبعت بروح الإنجيل وتأدبت بكلام الحياة الأبدية، فلم تعد تصدر عنها أفعال إلا المضبوطة بفعل الكلمة. لأن الأعمال هى الترجمة الحقيقية للإيمان.. «لأَنَّ الإِيمَانَ بِدُونِ أَعْمَال مَيِّتٌ» (يع ٢ : ٢٠).

لذلك نحن نقدم عينة تصلح أن تكون بداية لتدريب النفس على الانحياز لكلمة الله والتلمذة للإنجيل، بعيداً عن فلسفة الكلام وحكمة العقل البشرى، ومماحكات الكلام.. فنحن نؤمن أن الإنجيل هو الحياة.

فالكلمة فعلاً «حَيَّةٌ وَفَعَّالَةٌ وَأَمْضَى مِنْ كُلِّ سَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ» (عب ٤ : ١٢). وليبارك المسيح إلهنا فى كل كلمة لمنفعتنا وخلاص نفوسنا.

القمص لوقا سيداروس (استشهاد القديس أبى سيفين – ديسمبر ٢٠١٩)

القديس يوسف البار

الروح القدس هو الذى أعطى القديس يوسف لقب البار، هكذا وصفه الإنجيلى مار متى فى بشارته «لمَّا كَانَتْ مَرْيَمُ أُمُّهُ مَخْطُوبَةً لِيُوسُفَ، قَبْلَ أَنْ يَجْتَمِعَا، وُجِدَتْ حُبْلَى مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. فَيُوسُفُ رَجُلُهَا إِذْ كَانَ بَارًّا، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُشْهِرَهَا، أَرَادَ تَخْلِيَتَهَا سِرًّا» (مت ١ : ١٨ ، ١٩).

يقول الإنجيلى مار متى عن العذراء القديسة إنها «وُجِدَتْ حُبْلَى»، أى ظهرت عليها ملامح الحمل لدى الذين يرونها من الأهل أو الجيران. فمن جهة هؤلاء فمعروف انها مخطوبة ليوسف وهى مقيمة معه، فلا غرابة إن وُجدت حبلى، حتى وإن تكن مراسم الزواج من كتب ورق الزواج بشهود من العائلة وحضور الأهل والأقارب، وتسجيل الزواج فى سجلات المجمع وعمل حفل العرس وما إلى ذلك.. لم يكن شيئ من ذلك قد حدث. ولكن من جهة أخرى فإن التقليد يقول إن العذراء دخلت إلى الهيكل فى سن الثلاث سنوات وبقيت إلى سن اثنتى عشرة سنة، إذ كان يواقيم أبوها وحنة أمها قد رقدا وهى بعد صغيرة. فكان لابد فى حال خروجها من الهيكل أن تصير لأقرب ولى من سبطها. ولما وقعت القرعة على يوسف أخذ العذراء القديسة إلى خاصته، وأُعتبرت أنها مخطوبة له إلى أن تكمل مراسم الزواج.. هكذا كانت العادات فى تلك الأيام.

«لَمْ يَشَأْ أَنْ يُشْهِرَهَا، أَرَادَ تَخْلِيَتَهَا سِرًّا» (مت ١ : ١٩)

+ لما كشف الروح القدس فى الإنجيل عما دار فى ذهن يوسف النجار عندما رأى علامات الحمل على العذراء الطاهرة.. واضح أنه لم يفاتح العذراء القديسة فى ذلك الأمر، لا عاتبها ولا لامها.. بل تفكر فى نفسه كيف يتصرف. وهنا ومن منطلق هذا التفكير ممكن أن نستدل هلى مدى النبل فى الأخلاق والسمو فى الروح. كان للناموس حكم واضح من جهة هذا الأمر. وكان ما أسهل أن ينحاز ذهنه إلى الناموس وهذا ليس فيه عيب ولا ملامة. ولكنه تجاوز أوامر الناموس التى تقضى برجم من ترتكب هذا الأمر.. يشهد عليها شهود فى حالة إن أُمسكت فى ذات الفعل، أو تكون علامات الحمل أكبر دليل لا يحتاج الأمر معه إلى شهود. ولكن على عكس ذلك جاء تفكير القديس يوسف البار.

+ لم يرد أن يُشهرها.. إن أُخذ الأمر بحسب الظواهر فإن هذا يكون عاراً على القديس يوسف نفسه، وكم ينشئ هذا الأمر من الغيظ ومن الغضب بل ومن الانتقام وحتى القتل.

ألا يصير هذا الأمر – لو كان صحيحاً – خيانة ووصمة عار؟ ولكن نفسه البارة كانت أعلى قدراً وأسمى شأناً. لقد تجاوز وارتفع فوق المشاعر الطبيعية والأعراف البشرية، وفى كرم بالغ ونبل فائق لم يرد أن يشهرها. وجد فى نفسه ميلاً قوياً وشعوراً عميقاً أن لا يُعرِّض العذراء لأى مكروه مهما بلغ الأمر. إنه هو نفسه لم يفاتحها فى الأمر وإن كان قد بلغ به الاضطراب أى مبلغ. لقد فوجئ بالأمر فأذهله وما رأته عيناه أبعد عن التصديق. منذ أن استلم العذراء وهى طفلة ذات اثنى عشر ربيعاً إلى هذا اليوم.. لم يرها إلا ملاكاً بل أفضل من ملاك، ولم يلاحظها إلا مُشرقة كالصباح، جميلة كالقمر من كثرة الصلاة والتأمل. لقد فارقت الهيكل، ولكن رآها يوسف فى تلك الفترة من الزمن كأنها لم تترك الهيكل ولا فارقته.. بل رآها كأقدس من الهيكل وأطهر من الطهر ذاته.

فكيف إذن، فماذا حدث؟ إنها لم تفارق البيت ولا خلطة لها مع الناس؟ إن ما يراه الآن من علامات الحمل وقد لاحظه ربما بعد ثلاثة أو أربعة أشهر من زيارة رئيس الملائكة جبرائيل، التى احتفظت بها العذراء كسر إلهى ولم تُطلع عليه أقرب الأقربين. نعم لقد ذهبت لمدة ثلاثة شهور لزيارة زكريا الكاهن وزوجته أليصابات. وهذه الزيارة كانت مقدسة من كل جانب، فهى مضت تخدم وتعضد امرأة متقدمة فى أيامها وزوجها شيخ وقور لفَّهُ الصمت وعدم الكلام. لقد بدت الحيرة ودارت الأسئلة التى ليس لها جواب فى رأس القديس يوسف. سؤال وألف سؤال وليس من جواب شاف أو سبب واضح يريح الفكر. ولكن أى عقل هذا الذى فيما هو مفتكر بهذا لم يرد أن يشهرها. كيف ارتاح لهذا الفكر النبيل فى وسط عاصفة الأفكار الأخرى. لقد كشف هذا عن هذه الروح العالية والشهامة الفائقة لهذا الرجل البار.

أما أنه أراد تخليتها سراً، فهذا أمر فاق قمة أخلاق البشر.. أراد أن يُخلى سبيلها ويُطلقها سراً بلا ضجة وبلا معرفة للناس. تُرى ماذا جال فى خاطر هذا البار؟ لماذا سراً.. هل خوفاً على شعورها.. إنه لغز ليس له حل؟ كيف هداه الفكر إلى الستر وعدم الفضيحة أو إلى عدم الإساءة والإيذاء.. لقد كانت الجوهرة الغالية الثمن، فإن لم يكن يعرف سرها وإن يكن الفكر يلح عيه ويعذبه، فكر أن يدعها تذهب ولكن فى سلام وفى عدم جلبة. لقد كشف هذا الفكر الفاضل عن قلب رجل فائض بالسلام، جزيل الحب والغفران.

والعجيب أنه لم يكن فى عجلة من أمره ولا تصرف تصرف الطياشة والتسرع، ولا تهور فى إصدار الأحكام، أو دفعه الشعور القاسى بسبب ما رآه إلى ارتكاب جهالة أو فعل لا يليق. بل بالعكس صار متفكراً متأنياً، وبالتأكيد مصلياً طالباً أن يكشف له الرب سراً عصى عليه إدراكه. ربما أخذ هذا الأمر منه أياماً.. طار منه النوم وصار فى يقظة العقل والروح معاً. على أن الرب لا يترك صفيه نهباً للأفكار لئلا يستثمر عدو الخير هذه الظروف ويعمل عمله المشين فيُسئ للأمر كله.

«إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لَهُ فِي حُلْمٍ قَائِلاً: يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ، لاَ تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ. لأَنَّ الَّذِي حُبِلَ بِهِ فِيهَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ» (مت ١ : ٢٠). لم يقل الكتاب من مِن الملائكة أرسله الرب إلى القديس يوسف. ولكن غالب الظن أن يكون رئيس الملائكة جبرائيل إذ كان هو الموكل بالبشارة المفرحة حين انفتحت السموات بعد مئات السنين من الجفاف وانعدام الرؤيا. وليس عجباً أن يخاطب الملاك القديس يوسف داعياً إياه ابن داود، حقاً إن يوسف ينتسب لداود بحسب النسل الجسدى. ولكن ذِكر داود هنا يُسلط الضوء الإلهى على قيام مملكة داود حسب المكتوب، فالذى فى بطن العذراء هو الملك ابن داود بحسب الجسد، الكائن على الكل إلهاً مباركاً وهو الذى لا يكون لملكه انقضاء.

فطوبى ليوسف ابن داود إذ بلغ إليه زمن الخلاص ووصل إليه ملكوت الله.. بل طوباه لأنه صار مشاركاً بالفعل فى استعلان الملكوت وصار صاحب الاسم الحسن ابن داود.

قال الملاك رداً على ما كان يوسف يتفكر فيه: «لاَ تَخَفْ يَا يُوسُفُ».. وقول الملاك هنا مصحوباً بقوة إلهية طردت الخوف والجزع وطردت الحيرة والارتباك. فحين يعطى الملاك السلام فهو قوة لا كلام، وحين يقول لا تخف يكون الخوف قد ولى وهرب.

«لاَ تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ»..فهى على ما عهدتها من الطهر والنقاء. بل زادت بحلول الكلمة فى أحشائها على نقاء السماء وارتفعت أعلى من الشاروبيم. كشف رئيس الملائكة ليوسف البار كنه السر الأقدس من جهة ما رآه يوسف ظاهراً. إن الحبل المقدس هو من الروح القدس، فالجنين فى بطنها هو من الروح القدس ومن العذراء، هو الكلمة صار جسداً «فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ. لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ». فيوسف ظاهرياً دُعى أباً ليسوع وهو المنوط أن يسميه، كما هو العُرف المألوف أن والد الطفل يسميه. لقد صار ليوسف هذا الشرف العظيم فهو أول من نادى الاسم المبارك، اسم الخلاص.

لقد أطلع الملاك القديس يوسف البار على كل تدبير التجسد الإلهى وعمل المسيح الخلاصى وغفران الخطايا، كل هذا فى كلمات بسيطة قليلة. وهكذا خضعت نفس البار لتدبير الرب الإله كخضوع

القديسة والدة الإله لما بشرها الملاك واستوضحت منه على قدر الإمكان «كَيْفَ يَكُونُ هذَا؟». فلما استوثقت أن التدبير الإلهى حاصل أحنت رأسها مذعنة فى التسليم الكامل بقولها: «هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ».

فى تسليم كامل سكنت أمواج الأفكار وصارت سفينة القديس يوسف فى السلام الكامل، بل قُل لقد حلت السماء فى بيته وفى قلبه فى آن واحد. تحول البيت الصغير الذى احتوى غير المُحوى إلى سماوات العلي وسمعت أذان الروح تسبيحات الشاروبيم.

وهكذا صارت بقية شهور الحمل الإلهى تكتنفها الأسرار التى لا يمكن وصفها. فالأمر يفوق فهم الملائكة الذين فى السموات فكم بالحرى الإنسان؟! ولكننا ننحاز إلى أن بساطة الفكر ونقاء الإيمان يجعل الأمر بعيداً عن ارتباك العقل، إذ أن أمور الله يستوعبها البسطاء بدون فحص العقل، الذى فى معظم الأحيان يصير معطلاً ومفسداً لبساطة الإيمان. وهذا يجعلنا نرى أن القديس يوسف البار استوعب ببساطة الإيمان ما بشره به الملاك فى الرؤيا. وهكذا صار فى الروح التصديق والفرح واستقبال الحدث الأجَلَّ بنفس تغمرها أنوار الميلاد العجيب.

+ لما صدر أمر الامبراطور بالاكتتاب، وأن كل واحد يكتتب فى مدينته، كان لابد للقديس يوسف والعذراء المباركة أن يذهبا إلى مسقط رأسيهما إلى بيت لحم مدينة الملك داود. وسلوك الأبرار من جهة خضوعهم للملوك والرؤساء والقوانين والتنظيمات وكل ترتيب بشرى.. معروف منذ القدم، هو روح الله الذى يقود خطواتهم لكى يقضوا أيام غربتهم فى السلام الكامل. ورغم أنها كانت الأيام الأخيرة لحمل العذراء.. لم يكن هذا عذراً يمنعهم عن تكميل الأمر. كان على القديس يوسف أن يصطحب العذراء، وبحسب الامكانيات القليلة كفقراء، أن يهئ لها – على قدر الإمكان – أسباب الراحة فى السفر.. وإن بدا الأمر يسيراً ظاهرياً بحسب الظروف المحيطة، ولكن الحقيقة أن التدبير الإلهى من جهة دخول ابن الله الظاهر فى الجسد إلى العالم، كان معروفاً سابقاً بكل تفاصيله قبل كون العالم. فلم يكن شيئ خاضعاً للصدفة أو للظروف.. بل كان الكل مهيأً زماناً ومكاناً وكيفية بكل إتقان التدبير الإلهى.

كما ذكر الوحى أنهما حال وصولهما إلى بيت لحم، كانت الساعة التى كان الرب مزمعاً أن يدخل عالم الإنسان متجسداً قد حلت. وكانت القرية بسبب الاكتتاب قد ازدحمت بالوافدين إليها من كل مكان. ولم يكن للرب مكان فى المنزل فاستضافه عالم الحيوان، ليولد بحسب التدبير فى المذود.. كحمل

الله الذى يحمل خطية العالم. وليس جزافاً أن يقول الوحى إن العذراء ولدته وقمطته بيديها الطاهرتين وأضجعته فى المذود. وهذا معناه أنه لم يكن معها فى تلك الساعة أحد قط. لأن المعروف أن فى ساعة الولادة يجتمع الأهل الأقربون حول الوالدة يساعدون ويساندون ويعتنون بالمولود. ولكن العذراء ولدت وبقيت عذراء، وليس من يطلع على هذا السر الأعظم لا البشر ولا الملائكة. وفى لحظة ولادة ابن الله المتجسد انفتحت السماوات.. ولد ملك الملوك ورب الأرباب.. ألا تتهلل الملائكة.. نقول الخليقة كلها تهللت بمجيئك.

كان العالم لاهياً فى ليل، أما الملائكة فقد كان منوطاً بهم أن يبشروا من يجدوه ساهراً. سبحوه ويسبحونه على الدوام بلا فتور أو سكوت، ولكن صار الآن وجودهم منظوراً وتسبيحهم مسموعاً لأن ابن الله طأطأ السموات ونزل.

ولما جاء الرعاة تقودهم قوات عليا وإلهام سماوى لينظروا طفل المذود العجيب، رأوا الذى كان منذ البدء، الذى دخل العالم وكُوِّن به العالم والعالم لم يعرفه. كانت أمه والقديس يوسف يسمعان ما وصفه الرعاة البسطاء عن منظر الملائكة وتسبيحهم، ولم يكن هذا بحال من الأحوال جديداً على مسمع العذراء القديسة، لأن الشاروبيم والسيرافيم كانوا منذ اللحظة الأولى للتجسد يظللون عليها يسبحون خالقهم فى بطنها. فقد ألِفت أذنها الطاهرة سماع ما لا يمكن أن يدركه بشر من أصوات السمائيين ومجد السموات العلىّ.

+ محطات ذكرها الإنجيل.. اليوم الثامن يوم الختان، يوم دخول الهيكل بعد أربعين يوماً. كان للقديس يوسف بحسب وضعه الظاهر كأب للطفل أن يكون حاضراً فهو الذى يسمى الطفل، وهو الذى يذهب به إلى الهيكل ويقدم ذبيحة التطهير، يشتريها أو تُعطى له مجاناً إذا لم تكن تمتلك يداه. كل هذا والقديس بوعى كامل وإدراك كلى يعلم أنه يمثل دور الأب دون أن يكون، والزوج دون أن يعرفها. والمسئول وهو يعلم تماماً المظلة الإلهية التى تحوط السر بالقوات غير المرئية.

+ ثم الهروب إلى مصر.. صار يوسف البار فى صلب الخطة كجزء رئيسى لتكميل القصد الإلهى، وصار يتحرك بالهام بحسب ما يُعلن له بالرؤيا الإلهية.. «قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْرَ» (مت ٢ : ١٣). فقام وجهز كل ما يلزم لسفر طويل مملوء بالأخطار، لأنهم لأيام وشهور بلا زاد وبلا مأوى. ولكن كما قلنا إنه بالإيمان بما رأى وسمع وشاهد واختبر، لم يعد يقيم لتلك الأمور وزناً.

شد الرحال وسار قاصداً مصر. وقصص التقليد كثيرة والأماكن متعددة والسنوات الثلاث أو تزيد قضاها فى مصر هو وعائلته. تنقل فى مصر بحسب الإلهام وأقام الرب مذبحاً فى وسط أرض مصر،

وأسس كنيسته وبارك مصر أرضاً وشعباً. ثم أوحى ليوسف أن يرجع إلى اليهودية.. وسكن هناك فى ناصرة الجليل لكى يتم ما كُتب عن يسوع: «إِنَّهُ سَيُدْعَى نَاصِرِيًّا» (لو ٢ : ٢٣). وهو لقب لا للتكريم والتبجيل بل للاحتقار، لأن الجليل هو أحقر ما فى بلاد اليهود فى تلك الأيام. ولم يقم ولا نبى واحد فى تاريخ إسرائيل من الجليل. وكان من المتعارف عليه أن لا يخرج من الجليل (الناصرة) شئ فيه صلاح. ولكن كان الرب مزمعاً أن يُخرج من الجافى حلاوة الملكوت، ومن مكان الحقارة صارت كرامة رسل المسيح وأغلبهم من الجليل.

+ هكذا استقرت العائلة المقدسة فى الناصرة. وكان يوسف بحسب صناعته نجاراً. ويقول التقليد إن الرب عاش فى الناصرة بعد رجوعه من أرض مصر إلى سن الثلاثين عاماً، لما بدأ خدمة الخلاص علانية بعماده من يوحنا المعمدان. ويقول التقليد أيضاً إن يوسف البار انضم إلى آبائه ورقد وكان الرب فى عمر ١٦ أو ١٧ سنة على الأكثر.

والذى يذكره الإنجيل عن هذه الفترة شئ قليل، فغاية الإنجيل هو الصليب والقيامة. لقد أخبرنا الوحى عن أعمال الخلاص التى عملها الرب كارزاً وشافياً للأمراض، ومخرجاً للشياطين ومقيماً للموتى ومُفتحاً أعين العميان ومُعافياً كل الذين تسلط عليهم إبليس. ولما اقترب إلى الصليب صار التركيز على كل ساعة وكل حدث ذى معنى لخلاص البشرية.

فإن كان الوحى قد عبر على السنوات الأولى الثلاثين عبوراً سريعاً لأن الرب فيها شاء أن يعيش الإخلاء بكامل معناه.

فى الهيكل ابن ١٢ سنة:

«وَكَانَ أَبَوَاهُ يَذْهَبَانِ كُلَّ سَنَةٍ إِلَى أُورُشَلِيمَ فِي عِيدِ الْفِصْحِ. وَلَمَّا كَانَتْ لَهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً صَعِدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ كَعَادَةِ الْعِيدِ. وَبَعْدَمَا أَكْمَلُوا الأَيَّامَ بَقِيَ عِنْدَ رُجُوعِهِمَا الصَّبِيُّ يَسُوعُ فِي أُورُشَلِيمَ، وَيُوسُفُ وَأُمُّهُ لَمْ يَعْلَمَا. وَإِذْ ظَنَّاهُ بَيْنَ الرُّفْقَةِ، ذَهَبَا مَسِيرَةَ يَوْمٍ، وَكَانَا يَطْلُبَانِهِ بَيْنَ الأَقْرِبَاءِ وَالْمَعَارِفِ. وَلَمَّا لَمْ يَجِدَاهُ رَجَعَا إِلَى أُورُشَلِيمَ يَطْلُبَانِهِ. وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ وَجَدَاهُ فِي الْهَيْكَلِ، جَالِسًا فِي وَسْطِ الْمُعَلِّمِينَ، يَسْمَعُهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ. وَكُلُّ الَّذِينَ سَمِعُوهُ بُهِتُوا مِنْ فَهْمِهِ وَأَجْوِبَتِهِ. فَلَمَّا أَبْصَرَاهُ انْدَهَشَا. وَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: يَا بُنَيَّ، لِمَاذَا فَعَلْتَ بِنَا هكَذَا؟ هُوَذَا أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذَّبَيْنِ. فَقَالَ لَهُمَا: لِمَاذَا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِنِي؟ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي؟. فَلَمْ يَفْهَمَا الْكَلاَمَ الَّذِي قَالَهُ لَهُمَا. ثُمَّ نَزَلَ مَعَهُمَا وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ وَكَانَ خَاضِعًا

لَهُمَا. وَكَانَتْ أُمُّهُ تَحْفَظُ جَمِيعَ هذِهِ الأُمُورِ فِي قَلْبِهَا. وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ» (لو ٢ : ٤١ – ٥٢).

كُتب كثيرة دخيلة تكلمت عن طفولة الرب وأحاطتها بغرائب ومعجزات وأمور فائقة لطبيعة الأطفال حتى فى اللعب.. ولكن الكنيسة لم تقبلها ورفضتها لأن الإنجيل هنا يتكلم عن الكلمة المتجسد الذى «أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ» (فى ٢ : ٧ ، ٨). فهو طفل فى وسط الأطفال وهو غير منعزل ولا مختلف.. مع أطفال الأقارب والمعارف رفيقاً لهم ومعهم. الشئ الوحيد الذى يجب الانتباه إليه خلو حياة القدوس من عنصر واحد وهو الخطية.. لأن الوحى الإلهى يؤكد هذا قائلاً: «فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا، بِلاَ خَطِيَّةٍ» (عب ٤ : ١٥). وكما نقول فى القداس الغريغورى: «وشابهتنا (اشترك معنا) في كل شيء ما خلا الخطية وحدها». على ذلك كانت سنو الطفولة والصبا والشباب حياة بشرية كاملة طبيعية فى كل شئ تتصف بالكمال المطلق اللائق بربنا القدوس «الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ خَطِيَّةً، وَلاَ وُجِدَ فِي فَمِهِ مَكْرٌ (غش)» (١بط ٢ : ٢٢).

هكذا خلت طفولة الرب وصباه من نقص الطفولة وظواهر الطبيعة الساقطة التى تُلاحظ فى الأطفال من الأنانية والغضب والصياح والشراسة أحياناً.. وما إلى ذلك. فهو بطفولته قدس قامة الطفولة فى ذاته، وأظهرها جديدة كل الجدة إذ كان هو الجمال المطلق، الذى على صورته كان مزمعاً أن يخلق إنساننا الجديد.

وهكذا أيضاً خلت حياة الرب من نزق الصبا وحركاته وميوعته، وكل ما يخص هذه المرحلة من العمر أدخلها أيضاً إلى الكمال والانضباط، كنموذج إلهى لفترة من العمر يفتقر فيها الإنسان إلى الاتزان ورجاحة العقل وضبط اللسان وباقى أنماط السلوك.

هذا الأمر يجب أن يكون واضحاً للذين يقتربون بالفكر أو التأمل فى طفولة الرب أو مراحل نموه فهو كما قال الكتاب: «كَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ» (لو ٢ : ٥٢). أليس هو الكلمة الذاتى الواحد مع الآب فى الربوبية. ولكن لما اتخذ له جسداً كان كطفل كامل وصبى كامل وإله كامل فى ذات الوقت، لأن اتحاد لاهوته بناسوته هو اتحاد بغير افتراق.. ولكن أمر نموه بقدر الحكمة التى تظهر للناس، كان بتدبيره الخاص الذى لا يمكن إدراكه أو الاقتراب إلى كنه طبيعته.. لأن أفكار الله وطرقه تعلو عن أفكار البشر كعلو السماء عن الأرض.

لقد ظل القديس يوسف والعذراء الطاهرة يبحثان عن يسوع بعد ما رجعا إلى أورشليم ثلاثة أيام، وبحسب تعبير القديسة الأم «كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذَّبَيْنِ!». فى يقينى أن الخليقة بجملتها من ملائكة وبشر لم

تتعرف على الله أو تدركه كما أدركته القديسة العذراء مريم. لأن التجسد الإلهى خصها بملء النعمة وحلول الله فيها وسُكناه فى أحشائها تسعة أشهر كاملة. بل وأرضعته من ثديها الطاهر ونما ناسوته بعد أن وُلد من لبنها، فهى إذن تعرفه معرفة الأم فهو ابنها وإلهها، وهذه معرفة تفردت بها وصارت قاصرة عليها لا يشاركها فيها ملائكة ولا بشر.

ولكن رغم كل هذا فعاطفة الأم فى القديسة غالبة.. فهى تقول: «كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذَّبَيْنِ!». هكذا نطقت بصدق مشاعر الأمومة. وهذا يُلقى ضوءاً على حقيقة العلاقة الفائقة التى ربطت الأم القديسة بابنها الإلهى. وقد بدا من كلام العذراء القديسة أى توقير تقدمه للقديس يوسف البار حينما قالت: «أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ». وقد قدمت القديس يوسف على نفسها مع العلم أنها ارتفعت أعلى من السموات وصارت أرقى من السيرافيم.

وأنا أتعجب من صمت البار يوسف الذى يرفع مكانته ويُعلى قدره جداً.

+ قال الرب لأمه: «لِمَاذَا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِنِي؟ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي؟». تقول له مجازاً أبوك وهو فى واقع الأمر واقف فى بيت أبيه. لماذا كنتما تطلبانى؟ سؤال الرب هنا تجاوز الواقع المنظور، وهما، وبالأكثر القديسة مدركة كل الإدراك رسالته وإرساليته وتدبيره الذى وُلد لأجله. ولكن نعودِ للمشاعر البشرية الصادقة التى عاشوها، وهى التى سادت خلال ثلاثة أيام البحث التى أرهقت شعورهم الطبيعى.

هنا رد المسيح ابن الاثنتى عشرة سنة على كلمة العذراء «أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ». فى الواقع هو تصحيح سرى لمقولة العذراء إذ كان هو فى (بيت أبى) وهو كائن فيما لأبيه فكأنه يقول لها: تقولين أبى كان يبحث عنى، هذا جيد ولكن الحقيقة إننى فى بيت أبى، وأبى فىَّ وأنا كائن مع الآب كل حين، وها أنا فى بيت أبى الذى جعله اليهود مغارة لصوص، «يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي».

وقول الرب: «أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي». فى الواقع يرد الشعور البشرى وعاطفة الأمومة إلى الهدف الأسمى الذى لم يغب لحظة عن حياة الرب بالجسد، رغم حداثة السن، ولكن مجد الآب وتكريمه وطاعته كانت هى بدء وغاية التجسد. حتى فى نهاية أيام الخدمة قال للآب: «أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى الأَرْضِ... أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ» (يو ١٧ : ٤ ، ٦). ومنذ البدء شهد الآب من السماء قائلاً: «هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ» (مت ٣ : ١٧).

+ يقول الوحى: «فَلَمْ يَفْهَمَا الْكَلاَمَ الَّذِي قَالَهُ لَهُمَا» (لو ٢ : ٥٠). ثم يعود فيقول: «أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ تَحْفَظُ جَمِيعَ هذَا الْكَلاَمِ مُتَفَكِّرَةً بِهِ فِي قَلْبِهَا» (لو ٢ : ٥١). ربما اختلط الأمر فى كلام الرب

وعسر فهمه على القديس يوسف فقيل إنهما لم يفهما. ولكن عاد الروح فخص العذراء بحفظ الأمر فى القلب كأسرار الله الذى لايدركها أحد غيرها. ولم يكن ممكناً فى سياق الحديث أن يفرق بين يوسف والعذراء فجمعهما فى كلمة أنهما لم يفهما.. إذن من غير المعقول أن يُنسب عدم الفهم إلى القديس يوسف وحده.

+ ثم أن الرب بعد أن كشف كنه عمله الإلهى ورسالته ذهب معهما إلى الناصرة «وَكَانَ خَاضِعًا لَهُمَا».. ومن يُطيق مثل هذه الكلمة.. فهو الذى تخضع وتسجد له كل ركبة ما فى السماء وما على الأرض. ولكن هذا هو الإخلاء الذى صنعه الرب لأجل خلاصنا.

السير بحسب التدبير:

منذ اللحظة التى ظهر فيها الملاك للقديس يوسف ليخبره عن سر الحبل الإلهى.. نقول منذ تلك اللحظة صار القديس يوسف فى تحركاته خاضعاً لتوجيهات السماء.. يسمعها ويتبعها بطاعة وخضوع وبساطة شديدة. وكان الروح يقود خطواته فى الخطة الإلهية لخلاص العالم. ولم يكن معانداً للرؤيا السماوية كقول بولس الرسول، بل قد انحاز بكل كيانه خادماً للسر الأقدس.

فتدبير الهروب إلى مصر مثلاً كان ممكناً إذا فكر بفكره الخاص أن يسأل.. لماذا مصر؟ وإن كان ثمة هروب من وجه هيرودس فالأماكن كثيرة وقريبة. شئ مثل هذا لم يخطر على بال القديس يوسف.. بل فى الحال قام وأخذ الصبى وأمه وجاء إلى أرض مصر. فتحملا مشاق الطريق وبُعد المسافات.. وهكذا إذ أتى إلى أرض مصر مكملاً النبوات، وتنقل فيها من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، لقد بدا كآلة طيِّعة فى يد الروح يحركها كما يشاء وحيثما يشاء وأينما يشاء.

فى خضوع الرب:

الأمر الذى يربك الذهن كيف احتمل القديس يوسف خضوع الرب وامتثاله له لكل ما يؤمر به أو يوجه إليه. فالأمر ليس يوماً أو بعض أيام.. بل سنوات وسنوات منذ الميلاد إلى أن أكمل القديس يوسف غربته على الأرض وهذه بحسب التقليد سبع عشرة سنة. عاش الرب خلالها كابن مع أبيه بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى فى الحياة اليومية وفى النمو الطبيعى فى كل الأطوار.

+ بالطبع يجوز الأطفال فى أيام الصحة والمرض.. ولكننا ننحاز إلى الفكر أن الرب لم يمرض وإن كان فى أيام خدمته لخلاصنا حمل أمراضنا عليه وحمل تأديب سلامنا بل وحمل موتنا على

الصليب. فإن كان المرض شيئاً طبيعياً للطبيعة الساقطة التى تحمل الموت فيها، إذ اجتاز الموت إلى جميع الناس، وهكذا يظهر المرض كعلامة من علامات ضد الحياة، أى الموت.

لذلك نقول إن المسيح له المجد فى تجسده اتحد بطبيعتنا البشرية دون أن يكون عنصر الخطية فيها. فالروح القدس حل فى أحشاء البتول قدَّسها وطهَّرها وملأها نعمة. لذلك عبر الرب سنوات الطفولة بكل ما فيها ولكن بدون مرض أو نقص، فهو الكمال المطلق الذى لا يشوبه عوار. ولكن كطفل طبيعى سهر عليه القديس يوسف والأم العذراء وقاما بكل ما تتطلبه رعاية الطفولة.

+ عاش الصبى يسوع ونما فى النعمة والقامة وتسلم من القديس يوسف صنعة النجارة وصار يمارسها حتى دُعى نجار الناصرة واشتهر بها حتى قالوا: «أَلَيْسَ هذَا النَّجَّار ابْنَ يُوسُفَ؟ (لو ٤ : ٢، مت ١٣ : ٥٥). فى البداية كان يساعد القديس يوسف كصبى نجار يحمل الأخشاب ويجهزها.. ويمسك بطرفها عند نشرها ويساعد فى تثبيتها.. يقضى معظم نهاره يراقب ويساعد إلى أن تسلم تفاصيل الصنعة. وتعامل مع طلبات الناس يلبيها ولم يخلُ الأمر من تفاوت أمزجة الناس فمنهم الطيب المسالم ومنهم غير ذلك، ومنهم الأمين الملتزم ومنهم على غير ذلك.. ومنهم من يشكر ويمدح العمل ومنهم غير ذلك.

ونحن يتملكنا العجب حينما يذهب بنا الفكر إلى تفاصيل الحياة اليومية آنذاك، ومعاملات الناس على اختلاف أنواعهم، وحين نفكر أن الرب فاحص القلوب ومختبر الكلى الذى عيناه تخترقان أستار الظلام.. وكل شئ مكشوف وعريان أمامه، حتى نيات الناس وخفيات أسرارهم كانت أمامه. ولكنه تعامل معهم كمن أخلى ذاته آخذاً شكل العبد «ناظِرٌ كَثِيرًا وَلاَ يُلاَحِظُ. مَفْتُوحُ الأُذُنَيْنِ (العينين) وَلاَ يَسْمَعُ (يبصر)» كما تنبأ عنه إشعياء (إش ٤٢). فنيَّات الناس وأفكار قلوبهم مكشوفة أمامه ولكنه كان كمن لا يرى ولا يعرف وذلك بحسب تدبير الإخلاء الذى أكمله بإرادته وحده.

+ قيل عن القديس يوسف البار إنه كان قد تزوج فى شبابه وإنه أنجب أولاداً وبنات وهم من دُعوا أخوة الرب. وقد أيد هذا الرأى بعض الآباء الأولين بينما عارضه آباء آخرون وقالوا ببتولية القديس يوسف، وفسَّروا أمر أخوة الرب أن العادة فى تلك الأيام أن يلقب أولاد الخالة إنهم أخوة. وقالوا مثلاً إنه مكتوب: «وَكَانَتْ وَاقِفَاتٍ عِنْدَ صَلِيبِ يَسُوعَ، مريم أُمُّهُ، وَأُخْتُ أُمِّهِ مَرْيَمُ زَوْجَةُ كِلُوبَا أُمُّ يَعْقُوبَ وَيُوسِي» (يو ١٩ : ٢٥). فليس من المعقول أن تكون مريم أم يسوع ومريم الأخرى أختان بنفس الاسم، فهما أولاد خالات ولذلك دُعى أولاد مريم زوجة كلوبا أخوة ليسوع باعتبار إنهما أولاد أختين. وقد مالت الكنيسة الكاثوليكية إلى هذا الرأى وهكذا معظم آباء كنيستنا. على أى الأحوال سواء كان ذلك الرأى أو الرأى

الآخر فالأمر لا يغير شيئاً من الرسالة العظمى التى اضطلع بها، والدور المحورى الروحى الذى اختاره الروح القدس لتكميله، والذى بسببه صار للقديس يوسف منزلة منفردة لم يشاركه فيها أحد من القديسين، كحارس للسر الإلهى، كمُعتنٍ ومُربٍّ وقائم بالعناية والتربية وبدور رب البيت كرجل للسيدة البتول وكأب للطفل الإلهى.

قائمة نسب المسيح:

القديس متى الإنجيلى بدأ إنجيله هكذا: «كِتَابُ مِيلاَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ». وبدأ يتتبع التناسل من أب الآباء إبراهيم حتى داود الملك، وقد رصد أن هذه الحقبة أربعة عشر جيلاً. ثم من داود إلى أيام سبى بابل أربعة عشر جيلاً، ثم من سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً. وتتبع القديس متى ما كان مسجلاً من الأسماء واحداً فواحد دون إغفال أى اسم مهما كان شأنه، فبعضهم قديسون مشهود لهم من الروح القدس فى الأسفار وبعضهم كانوا غير ذلك. وقد سجل بالروح أيضاً بعض التلميحات مثل يهوذا ولد فارص من ثامار [ثامار كنته.. أى زوجة ابنه عندما رفض أن يزوجها لابنه خوفاً عليه من الموت، فتظاهرت كأنها زانية وجلست على الطريق حينما عبر يهوذا وزنى معها وأخذت منه رهناً وإذ قيل أن ثامار حامل قال يهوذا أن تُرجم.. ولكنها أظهرت الرهن وقالت مِن الرجل الذى له هذه أنا حُبلى – الرهن كان خاتمه وعصابته وعكازه – فقال يهوذا أنتِ أبر منى]. لم يعبر الروح على هذه رغم آلاف السنين!! هكذا عندما سجل أن داود ولد سليمان.. قال الروح: «مِنَ الَّتِي لأُورِيَّا».. أى من التى ليست له. على الرغم من التوبة التى قدمها داود.. وعلى الرغم من ألف سنة مضت. لكن تسجلت هذه الواقعة وغيرها فى سجلات الأبد.

فاض قلبى بكلام صالح

الملء يسبق الفيض..

«... القَلْب... مِنْهُ مَخَارِجَ الْحَيَاةِ» (أم ٤ : ٢٣). هناك حفظ القلب مما هو سائد فى العالم من الشرور والخطايا بأن يسهر الإنسان على مداخل النفس: العين والأذن واللسان حتى لا يتسرب إلى داخله شيء من النجاسات أو الشرور. ولكن الحركة الإيجابية هى أن يمتلئ القلب من النعمة، ويمتلئ من روح الله، من كل ما هو جليل وطاهر، من كل ما هو نور وحق.

فإن امتلأ القلب بهذه الحاسيات الإلهية يصير كنز القلب صالحاً كقول الرب.

+ «خَبَأْتُ كَلاَمَكَ فِي قَلْبِي... » (مز ١١٩ : ١١).. فصارت كلمة الرب تسكن هناك وهى «حَيَّةٌ (قوية) وَفَعَّالَةٌ وَأَمْضَى مِنْ كُلِّ سَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ» (عب ٤ : ١٢).

+ «أَبْتَهِجُ أَنَا بِكَلاَمِكَ كَمَنْ وَجَدَ غَنِيمَةً وَافِرَةً (غنائم كثيرة)» (مز ١١٩ : ١٦٢).. يتحصل القلب بفرح على كلمة الحياة الأبدية بابتهاج لا يعبر عنه.. يجد فيها لذة لا تدانيها لذة.. يمتلئ بها الداخل ويغتنى ويستغنى بها عن كل غِنى أرضى.

+ «وُجِدَ كَلاَمُكَ (حلو) فَأَكَلْتُهُ، فَكَانَ كَلاَمُكَ لِي لِلْفَرَحِ» (إر ١٥ : ١٦).

+ قال الرب لحزقيال لما أراه فى الرؤيا الكلمة الإلهية المكتوبة فى دَرج الكتاب.. قال له الرب: «كُلْ مَا تَجِدُهُ..» فخضع حزقيال للأمر وقال: «فَفَتَحْتُ فَمِي فَأَطْعَمَنِي... فَصَارَ فِي فَمِي كَالْعَسَلِ حَلاَوَةً» (حز ٣ : ١ – ٣). فأطعم جوفه للشبع.

+ عندما تسكن كلمة الرب بغنى فى القلب، وعندما تجد فى القلب أرضاً صالحة تثمر الكلمة «ثَلاَثِينَ وَسِتِّينَ وَمِئَةً» (مت ١٣).

+ سُكنى الكلمة فى القلب يغير القلب الحجرى إلى قلب لحم. أى أن الكلمة الإلهية تُرَقِّق المشاعر، وتجعل الإنسان رحيماً رقيقاً ذا ضمير حساس مرهف لعمل الصلاح والإحسان والشعور بالضعيف والمظلوم والذين فى ضيقة.

+ ومتى ملكت الكلمة على القلب صارت توجهات القلب كلها نحو الصلاح والحق وصار مضبوطاً بالحب، وصار البذل والعطاء منهجاً للحياة.

+ عمل الكلمة فى القلب لا يمكن شرحه، فهى ضابطة للسلوك وضابطة للكلام والتصرفات، ضابطة للطبع والمزاج، ضابطة للصحو والنوم والفرح والحزن.. بحيث أن الكلمة تقود وتوجه وتحكم.

+ قال أب فاضل لآخر كان يشتمه: "كنت قادراً أن أرد عليك ولكن ناموس إلهى أغلق فمى".

+ ملء القلب من نعمة الكلمة يأتى من اللهج فيها النهار والليل.

+ «لَوْ لَمْ تَكُنْ شَرِيعَتُكَ لَذَّتِي (هى تلاوتى)، لَهَلَكْتُ حِينَئِذٍ فِي مَذَلَّتِي» (مز ١١٩ : ٩٢).. القلب الطالب ناموس الرب يجد فيها مسرته.

+ عندما يمتلئ القلب يفيض، فتجرى الكلمة على اللسان بدون مانع ولا عائق، تتدفق كالنهر الجارف طبيعياً بدون تكلف. يفيض القلب فيضاناً دائماً كقول الرب: «تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ» (يو ٧ : ٣٨). قال الرسول: «لَسْنَا كَالْكَثِيرِينَ غَاشِّينَ كَلِمَةَ اللهِ» (٢كو ٢ : ٢٧).

+ الكلمة الفائضة من قلب مملوء نعمة، لا تحتاج إلى فلسفة الكلام..

+ الكلمة الفائضة من قلب مملوء نعمة، لا تحتاج إلى زخرف الألفاظ وجمال اللغات.

+ الكلمة الفائضة من قلب مملوء نعمة، لا تحتاج إلى جدل لإثبات، بل هى تحمل قوة الله للعمل فى القلب.

– لا تحتاج للتمثيل وحركات الوعَّاظ وعلو الصوت وخفضه وكل المؤثرات البشرية.

– هى بعيدة عن الكلام االمَلِقُ (اللين) لكى ترضى السامعين، أو تشترى ودهم. فالرسل الكذبة وصفهم القديس بولس أنهم بالكلام المَلِق يخدعون قلوب السُلماء ويُغررون بهم، وهم يخدمون بطونهم ومصالحهم ويعملون لحساب ذواتهم لا لحساب المسيح. «لأَنَّ مِثْلَ هؤُلاَءِ لاَ يَخْدِمُونَ رَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحَ بَلْ بُطُونَهُمْ. وَبِالْكَلاَمِ الطَّيِّبِ وَالأَقْوَالِ الْحَسَنَةِ يَخْدَعُونَ قُلُوبَ السُّلَمَاءِ» (رو ١٦ : ١٨).

لذلك فالفيض من ينبوع الروح يكون لحساب المسيح وحده والروح هو الذى يعمل فى الكلمة.. ألا تذكر كيف رجع الخدام الذين أرسلهم الكتبة والفريسيون ليأتوا بالمسيح؟ كيف أنهم رجعوا يقولون: «لَمْ يَتَكَلَّمْ قَطُّ إِنْسَانٌ هكَذَا مِثْلَ هذَا الإِنْسَانِ!» (يو ٧ : ٤٦) لأنهم استمعوا إلى كلمات النعمة الخارجة من فمه المبارك.

كل من يمتلئ يفيض.. هكذا عرفنا الآباء القديسين وهكذا قنَّنت الكنيسة أقوال الآباء القديسين الذين فسروا لنا الكتب وحفظوا لنا الإيمان. وهكذا أيضاً ما كتبه القديس بطرس: «بَلْ تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ» (١بط ١ :٢١).

+ أيها الأخ الحبيب ليجعل الله كلمته الحية تدخل بالحق إلى أعماق قلبك ونفسك وتعمل عملها العجيب كما قال الرب: «لاَ تَرْجِعُ إِلَيَّ فَارِغَةً بَلْ تَعْمَلُ مَا سُرِرْتُ بِهِ وَتَنْجَحُ فِي مَا أَرْسَلْتُهَا لَهُ» (إش

٥٥ : ١١). وليجعل قوله كاملاً فيك: «اَلإِنْسَانُ الصَّالِحُ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الصَّالِحِ يُخْرِجُ الصَّلاَحَ» (لو ٦ : ٤٥).

جعلت الرب أمامى فى كل حين

هل اختبرت الحياة فى حضرة المسيح ولو ليوم واحد؟ وهل شعرت إنه يرافقك كل اليوم؟ ويشترك معك فى كل عمل؟

إنه بالفعل اختبار فائق لا يمكن وصفه. فصحبة المسيح تملأ اليوم بالنور الحقيقى فتسعد به، لأن الظلام يهرب وحضوره الحقيقى يُفرح القلب «فَفَرِحَ التَّلاَمِيذُ إِذْ رَأَوْا الرَّبَّ» (يو ٢٠: ٢٠). بل قل إن هذا هو الفرح. هذا ليس فكراً ولا خيالاً. لأن المسيح يسوع هو الحق ذاته.

هو قال: «أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ» (مت ٢٨ : ٢٠)، وقال: «إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كَلاَمِي، وَيُحِبُّهُ أَبِي، وَإِلَيْهِ نَأْتِي، وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً. » (يو ١٤ : ٢٣)، وقال: «اَلَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحِبُّنِي، وَالَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي، وَأَنَا أُحِبُّهُ، وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي» (يو ١٤ : ٢١).

فالأمر إذن معلق بحب يسوع وحفظ وصاياه. وكأن هذا هو المدخل للحياة فى المسيح أو للحياة بالمسيح أو للحياة مع المسيح.

+ لما تجسد رب المجد وصار إنساناً أخذ الذى لنا.. وشاركنا فى كل شئ من تفاصيل حياتنا البشرية ما خلا الخطية وحدها. فجميع الأعمال اليومية التى نمارسها من صحو ونوم ومشى وجلوس وأكل وشرب، شاركنا ويشاركنا فيها بدون أدنى شك.

فإن أحببناه من كل القلب وحفظنا وصاياه فإننا سنراه ونلمسه فى كل تفاصيل الحياة.. نرى يده تعمل معنا وتعمل بنا، ونلمس حضوره.. ننادى اسمه القدوس فيجيبنا. ونطلبه فيوجد لنا، نراه فتفرح قلوبنا.

وحينئذ نفهم أنه بدونه لا نقدر أن نفعل شيئاً. هو العامل فينا، وحينما نبتعد عنه بإرادتنا أو بانشغالاتنا الباطلة أو بخديعة العدو واغراءاته الكاذبة، نشعر فى الحال أننا ابتعدنا عن مصدر فرحنا، فتلفّنا الظلمة فى داخل النفس ونشعر بالفراغ والبؤس، وكأن حياتنا قد تفرغت تماما من معناها، فنشعر أن وجودنا بلا قيمة إذ قد اختفى هدف وجودنا الحقيقى.

+ ولكن عندما نعود نطلبه يشرق علينا ويبدد ظلمتنا فى الحال.

+ الآباء علمونا كيف تكون الحياة فى حضرة المسيح بالصلاة الدائمة.. مارسوها وأحبوها وعاشوا فى نعيمها. نادوا اسم يسوع بحب ودالة فوجدوه حاضراً دائماً. فلما ذاقوا هذه الحياة الفردوسية واظبوا على الصلاة ليلاً نهاراً بفرح لا ينطق به.

+ وشعروا بحضور الرب الدائم حتى إنهم من كثرة ما نادوا الاسم المبارك صار فى أفواههم تسبحة بغير سكوت ولا فتور.. حتى إنهم لما أسلموا أنفسهم للنوم ظلت قلوبهم تلهج بالتسبيح كمن يقول: «أَنَا نَائِمَةٌ وَقَلْبِي مُسْتَيْقِظٌ» (نش ٥ : ٢).

+ وبالنسبة لنا نحن الذين نعيش فى العالم يمكن أن ندرب أنفسنا شيئاً فشيئاً على مناداة اسم الخلاص الذى لربنا يسوع المسيح.. نناديه بحق وحب ونثق أننا عندما نناديه نجده حاضراً.. وهذا يُدخل إلى عالمنا بهجةً وفرحاً ويصبغ أعمالنا البسيطة بصبغة الروح والقداسة فى آن واحد. فتتقدس الأعمال وتتبارك بحضور الرب وتنال نعمة ونجاحاً إذ قد اقترنت بالصلاة.

+ وممكن لأكثر الناس مشغولية أن يمارسوا هذه الصلاة العميقة لأنها على الرغم من قلة كلماتها إلا أنها تُدخل الإنسان للحال فى الحضرة الإلهية فتزيل الهموم مهما كانت وترفع القلب فى الحال إلى السماء.. فما أجملها حياة.

+ وقد مارسها أناس كثيرون عندما اقتحمتهم الأمراض الصعبة والآلام فوجدوا عزاءً وعوناً فى حينه. فالرب سامع الصلاة ومستجيب لكل من يدعوه. فصار اسم يسوع لهم عزاءً يغلب الألم ويجدد الصبر ويسند الضعف. فقد تمثل أمام أعينهم يسوع المسيح وإياه مصلوباً، وكان فى حضوره إنه «فِي كُلِّ ضِيقِهِمْ تَضَايَقَ، وَمَلاَكُ حَضْرَتِهِ خَلَّصَهُمْ» (إش ٦٣ : ٩).. فأحبوا الآلام لكونهم شركاء آلامه، بل إنهم لم يطلبوا أن تُرفع عنهم الآلام ولكن طلبوا الشركة الدائمة «لأَنَّهُ كَمَا تَكْثُرُ آلاَمُ الْمَسِيحِ فِينَا، كَذلِكَ بِالْمَسِيحِ تَكْثُرُ تَعْزِيَتُنَا أَيْضًا» (٢كو ١ : ٥).

+ نؤمن أن ربنا غير زمنى، لا يحده زمان ولا مكان، فهو الكائن الذى لا بداية له ولا نهاية.. فهو موجود معنا على الدوام بحسب وعده ولكن حين نطلبه نجده.

فى قصة القديس أنبا أنطونيوس لما اعتدت عليه الشياطين وضربوه حتى قارب الموت. ففى أنين الألم نادى قائلاً: يا رب يسوع.. فوجد الرب قائماً بجواره، فعاتبه عتاب الأحباء قائلاً: لماذا تركتنى للشياطين ولم تنقذنى؟ فأجابه الرب قائلاً: حينما طلبتنى وجدتنى. فبالرغم من وجود

الله معى فى حجرتى فلن أشعر بوجوده أو بصحبته دون أن أطلبه من كل قلبى وأتوسل إليه أن يوجد معى. حينئذ يبدأ الحوار وتتحرك الحواس الروحية لإدراك حضوره الإلهى.

«مَنْ يَكْتُمُ خَطَايَاهُ لاَ يَنْجَح»

الخطية هى التعدي أو قل إنها فعل الإرادة عندما تنفصل عن الله. أو هي عمل الإرادة الذاتية في مخالفة وصايا الله، وقال الكتاب إن أجرة الخطية هى موت.

وبداية سقوط الإنسان كانت مخالفة وصية خالقه، ومع المخالفة صار الانفصال عن الله – عن مصدر الحياة والنور– ومع الخطية دخل الموت وساد على الإنسان بإرادته عندما ابتعد عن الحياة لذلك قال: «مَنْ يَكْتُمُ خَطَايَاهُ لاَ يَنْجَحُ» (أم ٢٨ : ١٣). المسيح جاء للخطاة – أي للموتي بالخطايا – جاء إليهم ليهب الحياة للميت. جاء ليقيم الموتي ويحييهم.

ولما كان هو غير الخاطيء وحده.. لذلك حمل خطية الخاطيء ودفع أجرة الخطية عنه لما مات على الصليب ووفي الدين بالكامل وخلص الخاطيء من حكم الموت لذلك عندما اشترانا المسيح من الموت وسدد الدين وعتقنا من العبودية صرنا مديونين للمسيح. وصرنا أحراراً من العبودية لما محا الصك الذي كان علينا.

+ سؤال: بعد أن تحررنا بنعمة المسيح من الموت لماذا ما زلنا نخطيء؟

المسيح لما اشترانا لم يلغ إرادتنا ولم ينهي حريتنا بل قال: «إِنْ حَرَّرَكُمْ الابْنُ فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ أَحْرَارًا» (يو ٨ : ٣٦).

تقديس الإرادة وتقديس الحرية هو هدف الحياة في المسيح. ليست الحرية أن أفعل ما أريد بل الحرية هى أن لا أُستعبد لشيء بطَّال.. «كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ الْخَطِيَّةَ هُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيَّةِ» (يو ٨ : ٣٤).. الخطية تفقدني الحرية الداخلية وتتسلط على إرادتي فأصير ضعيفاً.. أنا ضعيف وأنا معرض للسقوط.. هذا حق. قد أسقط ولكن الصديق يسقط والرب يقيمه. الخطية لم تعد من طبيعتي بعد أن تجددت بالمعمودية.. الخطية عنصر غريب.. بل قل هى مرض الموت. كتمان الخطية وإخفاؤها هو كمن يخفي مرضه عن الطبيب. هذا يصير فى خطر الموت.

+ من أكبر النعم التى حصلنا عليها فى المسيح غفران الخطايا.

نحن نكشف قلبنا للنور فتتبدد الظلمة. الشيطان وكل قواته لا يعمل إلا فى الظلام.

كشف الخطايا يجعل إبليس يهرب. أنا أعترف أمام الكاهن.. هو وكيل الله كقول الرسول ووكيل سرائر الله. وفى نفس الوقت هو أبى..

عندما أعترف أنا أرجع إلى أبى أقول أخطأت وأطلب غفراناً. لما أخطأ داود النبي وأخفي خطيته قال: «لَمَّا سَكَتُّ بَلِيَتْ عِظَامِي» (مز ٣٢ : ٣)، صار معذباً، ولما اعترف أمام ناثان النبي وقال: «قَدْ أَخْطَأْتُ إِلَى الرَّبِّ». فقال له النبى فى الحال: «الرَّبُّ أَيْضًا قَدْ نَقَلَ عَنْكَ خَطِيَّتَكَ. لاَ تَمُوتُ» (٢صم ١٢ : ١٣).

التوبة هى عقد للصلح بيني وبين الله الذى أخطأت إليه. أنا راجع مثل الابن الضال.. باكياً نادماً حزيناً بعد أن بددت مالي وصرت في العوز. عقد للصلح بين اثنين: الخاطيء الراجع والآب السماوي ويمثله وكيله. الوكيل يمثل الله وينوب عنه ويمضي العقد لأنه مفوض بتوكيل. أنا أسمع كلمة غفران من فم الوكيل.

الوكيل لا يملك شيئاً بل هو مؤتمن على أموال موكله، هو يمثله فى كل شيء. لذلك لا يصح أن أعترف بخطاياي أمام أي أحد ليس عنده توكيل. الوكيل لا يعطي من ذاته ولا يصرف من خزانته. الوكيل يتصرف بحسب أوامر سيده.

الكاهن يضع يده بالصليب على رأس المعترف.. فالصليب هو الذي دفع ثمن الخطية بموت المسيح عليه.. في الصليب الغفران، ودم يسوع المسيح يطهرنا من كل خطية، والكاهن يقول لله : «الذين أحنوا رؤوسهم تحت يدك» فيد الكاهن المنظورة تشير إلى يد الله غير المنظورة

أنا أطلب الحل والغفران فيقول الكاهن: «الله يحلك من خطيتك».

رباطات الخطية هى رباطات الموت.. والكاهن وكيل الله أخذ هذا من فم المسيح «مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ» (يو ٢٠ : ٢٣). هو قال للرسل الأطهار لما أقام لعازر: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ» (١١ : ٤٤).

أنا أخرج من الاعتراف في قمة الفرح، لأجل غفران الخطايا وكسر القيود وحل الرباطات التى كنت مربوطاً بها.

أشعر أن روحي عادت إلى حريتها ورونقها ورجائها. قد تبددت الظلمة. لم يعد في نفسي شيء أخجل منه.. أشرق النور داخلي.. أعود أجدد عهودي وأسترد قوتي للجهاد الروحي والسعي نحو خلاصي وتمتعي بالنعمة.

قدموا أجسادكم ذبيحة لله

«أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ، وَرُوحُ اللهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ؟» (١كو ٣ : ١٦).

+ جسدى هو هيكل للروح القدس الساكن فىَّ.

+ أنا لا أبغض جسدى بل أقوته وأربيه كما فعل المسيح بجسده الذى هو الكنيسة.

+ بما أن جسدى هو هيكل للروح فيجب أن يكون جسدى مقدس.

+ الخطية – بالذات خطايا النجاسة – تسئ إلى الجسد.. الخطية تُهين الجسد، الذى يزنى يخطئ إلى جسده.

+ أنا أمجد الله فى روحى وفى جسدى لأن المسيح اشترانى فصرت ملكاً له «مَجِّدُوا اللهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ الَّتِي هِيَ للهِ» (١كو ٦ : ٢٠).

+ أعضاء جسدى صارت أعضاء جسد المسيح.. «أَفَآخُذُ أَعْضَاءَ جسد الْمَسِيحِ وَأَجْعَلُهَا للخطية؟» (١كو ٦ : ١٥) «حَاشَا! نَحْنُ الَّذِينَ مُتْنَا عَنِ الْخَطِيَّةِ، كَيْفَ نَعِيشُ بَعْدُ فِيهَا؟» (رو ٦ : ٢).

+ عندما يُشاغب الجسد ويقع تحت تجارب العدو أقول مع الرسول: «أَقْمَعُ جَسَدِي وَأَسْتَعْبِدُهُ» (١كو ٩ : ٢٧).

+ أنا أدرب جسدى ليخدم خلاصى.. بدون تدريب الجسد يتمرد ويجرنى إلى التراب.

+ أجساد الوحوش والحيوانات تقودها الغرائز التى أوجدها الله فيها فلا تنحرف عن الغرض التى خُلقت من أجله. فإذا جاع الحيوان تقوده الغريزة للأكل وإذا عطش تقوده إلى الشرب فإذا امتلأ يكف عن الأكل والشرب. الغريزة وضعت لابقاء الحياة.. الغرائز فى الحيوان لها أوقات لا تتعداها. انحراف الغرائز موجود فقط فى الإنسان لأن الإنسان يتمتع بنفس عاقلة والعقل يوجه حياة الإنسان.

العقل واقع بين الجسد والروح كما يقول القديس أنبا مقار. فإن انحاز العقل نحو الجسد وغرائزه وشهواته يصير الإنسان جسدانياً شهوانياً، والعقل يزين له ويخترع له طرق لا تنتهى ويستهلك الإنسان. فينحدر الإنسان فى هوة عميقة بلا شبع. وإذا انحاز العقل للروح.. فبالروح يقدر أن يخضع الجسد ويُميت أعماله.

+ أنا أقدم جسدى ذبيحة كوصية الرسول بولس، أخدم المسيح بجسدى بالصوم والصلاة والتأمل وكل أنواع الخِدم.. أبذل جسدى فى مساعدة أخوتى.. وأتعب لراحتهم.

+ زينة الجسد هى اهتمام العالم كله.. أما زينة الروح فيعرفها الإنسان المسيحى.

+ زينة الجسد مؤقتة محكوم عليها بالزمن فالجسد اليوم صحيح ولكن غداً مريض. ملوك الجمال الجسدى اليوم يأتى عليهم الزمن فيصيروا بلا اعتبار وبلا جمال. ولكن الذين اهتموا بزينة أرواحهم بالفضائل صاروا من مجد إلى مجد. زينة الروح فى الداخل تبقى وتدوم.

+ الذين يزرعون للجسد فمن الجسد يحصدون فساداً.. لأن الجسد بالنهاية فاسد. أما الذين يزرعون للروح فمن الروح يحصدون حياة وسلام.

+ إن كان طبع الوحوش قد أُخضع لتدريب الإنسان، فقد أثبت الإنسان أنه يقدر أن يُخضع الغرائز التى للحيوانات.. فبالأولى يقدر أن يدرب غرائزه الخاصة.

+ التدريب ليس بالأمر السهل.. ولكنه ليس مستحيلاً. ملايين البشر استهوتهم طرق التدريب.. التدريب الرياضى للياقة الجسد خلق أبطالاً فى جميع الألعاب الرياضية والمسابقات فى الأولمبياد.. أشياء يتعجب لها كل من يشاهدها ويندهش كيف وصل هؤلاء.

الموهبة مع الأمانة فى التدريب مع الاستمرار هى التى خلقت البطولات الخارقة. أنا أملك الموهبة والنعمة.. نعمة البنوة لله وموهبة الروح القدس.

ينقصنى التدريب الروحى والأمانة والاستمرار فيه، عندئذ تظهر فى الإنسان بطولات الإيمان، وبطولات القداسة والمحبة والاتضاع، وكل الفضائل التى ظهرت فى القديسين وفتنوا بها المسكونة.

العيب فينا أننا أهملنا الموهبة التى فينا.. ونسينا التدريب فى الحياة الروحية. القديس بولس الرسول قال: «أُدَرِّبُ نَفْسِي لِيَكُونَ لِي ضَمِيرٌ صالح» (أع ٢٤ : ١٦) وقال: «أَقْمَعُ جَسَدِي وَأَسْتَعْبِدُهُ، حَتَّى بَعْدَ مَا كَرَزْتُ لِلآخَرِينَ لاَ أَصِيرُ أَنَا نَفْسِي مَرْفُوضًا» (١كو ٩ : ٢٧).

+ أدرب فكرى أن يلهج فى ناموس المسيح ليلاً ونهاراً.. بالصلاة الدائمة.

+ أدرب عينى لكى لا تنحرف نحو النظر البطَّال.. لأن سراج جسدى هو عينى.

+ أدرب لسانى أن يكون ينبوع للبركة وألا تخرج كلمة ردية من فمى.

+ أدرب قلبى أن يكون دائم النقاوة.

+ أدرب نفسى على عمل الخير.

+ أدرب نفسى على ضبط النفس والوداعة، وأُخضع قوة الغضب والسخط لكى لا تملكنى.

+ إن تدريب النفس فى الحياة المسيحية أمر يغطى الحياة كلها.. أدرب نفسى كل يوم وكل ساعة.

+ قد أفشل أحياناً.. ولكن الفشل لا يمنعنى من المسيح.

+ قد أسقط أحياناً ولكنى أقوم وأكمل جهادى.

+ وأخيراً بنعمة المسيح أصل إلى ميناء الخلاص. «جاهدوا الجهاد الحسن».

سراج الجسد

قال ربنا يسوع: «سِرَاجُ الْجَسَدِ هُوَ الْعَيْنُ، فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ بَسِيطَةً فَجَسَدُكَ كُلُّهُ يَكُونُ نَيِّرًا» (مت ٦ : ٢٢). فإن أردت راحة ونوراً وسلاماً لجسدك احفظ عينك بسيطة كقول الرب. فالعين هى آلة التصوير فى جسدك. إن انفتحت على السماويات وتطلعت إلى كل ما هو جليل وكل ما هو طاهر، فإنها تحفظ نقاوتها وتزداد بساطتها والعكس صحيح.

+ افتح عينك فى الإنجيل.. واجعلها تمتلئ من نور الكلمة الإلهية. افتح عينك على أيقونات القديسين وتأمل حياتهم المنيرة فتستنير.

ادخل إلى الكنيسة المقدسة وقل مع داود المرتل الذى قال: «أَدْخلُ إِلَى مَذْبحِ (هيكل) الله تِجاهَ وَجْه اللهِ الَّذى يُفرحُ شَبابى» (مز ٤٢ أجبية). وقال أيضاً: «وَاحِدَةً سَأَلْتُ مِنَ الرَّبِّ وَإِيَّاهَا أَلْتَمِسُ: أَنْ أَسْكُنَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِي، لِكَيْ أَنْظُرَ إِلَى جَمَالِ الرَّبِّ، وَأَتَفَرَّسَ فِي هَيْكَلِهِ المقدس» (مز ٢٧ : ٤).

هناك تفرح العين وتمتلئ من النور الإلهى.

+ افتح عينك لتشاهد مجد الله فى خليقته. تأمل فى السموات فإنها تُحدِّث بمجد الله، بل افتح عينك وتأمل نفسك وما صنعه الله بك ورحمك.. إن من ينظر خطاياه ويتوب عنها أفضل من الذى يرى الرؤى.

+ من جهة الجهاد السلبى احفظ عينك من العثرات والمناظر والخيالات النجسة، لأن العدو يستغل هذا ويحاربك ليلاً ونهاراً بآلاف الصور التى سمحت لعينك أن تلتقطها بإرادتك.. فهو يهجم عليك ويحول جسدك إلى الظلمة. فجاهد أن تجعل عينَك عفيفةً ولا يغرك غش الجمال الباطل ومناظر الخلاعة.

+ درب عينك على النظر العميق – لا تنظر إلى الشكل الخارجى – بل تأمل جوهر الأشياء.. الخارج سريعاً ما يتغير ويضمحل أما الداخل فهو باق دائم. قال الرسول: «نَحْنُ غَيْرُ

نَاظِرِينَ إِلَى الأَشْيَاءِ الَّتِي تُرَى، بَلْ إِلَى الَّتِي لاَ تُرَى. لأَنَّ الَّتِي تُرَى وَقْتِيَّةٌ، وَأَمَّا الَّتِي لاَ تُرَى فَأَبَدِيَّةٌ» (٢كو ٤ : ١٨).

اِعلم «أَنَّ ابْنَ اللهِ قَدْ جَاءَ وَأَعْطَانَا بَصِيرَةً» (١يو ٥ : ٢٠).. أى العين الداخلية فى خلقتنا الجديدة التى نرى بها أسرار الله وأعمال الله ويد الله من وراء ما هو منظور. «فطُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ» (مت ٥ : ٨).

العين البسيطة والقلب النقى يفتح امام الإنسان المجال الإلهى، فيحيا على الأرض حياة فردوسية مملوءة بالفرح الذى لا يُنطق به.

+ الرب نورى وخلاصى.. لذلك يضئ طريقى وينير سبيلى فى كل زمان ومكان.

+ قل للرب فى الصلاة «أَنِرْ عَيْنَيَّ لِئَلاَّ أَنَامَ نَوْمَ الْمَوْتِ» (مز ١٣: ٣). وتمتع بقول المسيح «طُوبَى لِعُيُونِكُمْ لأَنَّهَا تُبْصِرُ... لأن ملوكاً وأَنْبِيَاءَ كَثِيرِينَ اشْتَهَوْا أَنْ يَرَوْا مَا أَنْتُمْ تَرَوْنَ وَلَمْ يَرَوْا» (مت ١٣: ١٦، ١٧).

+ أما من جهة أمور هذا العالم والذين يشتهون هذا العالم وخيالاته.. فإن الحكيم قال: «الْعَيْنُ لاَ تَشْبَعُ مِنَ النَّظَرِ» (جا ١: ٨).. ففى السعى وراء نظر الأمور العالمية لا يوجد امتلاء ولا يوجد شبع.

+ اجعل عينك تشبع من الذى قيل عنه «أَنْتَ أَبْرَعُ جَمَالاً مِنْ بَنِي الْبَشَرِ» (مز ٤٥: ٢).

+ لا تتطلع إلى الأرضيات بل ثبت نظرك إلى أعلى وقل: رفعتُ عَيْنَيَّ إِلَى الْجِبَالِ، مِنْ حَيْثُ يَأْتِي عَوْنِي» (مز ١٢١: ١).

+ أنت إنسان سماوى، أنت تدعو الله أباً وتقول: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ.. أنت تقول: الرب نورى.. وتقول: بنورك يا رب نعاين النور.

+ سراج جسدك هو عينك.. احذر لئلا ينطفئ السراج.. احفظه منيراً.

+ ارشم علامة الصليب على عينك فتتقدس.

+ فى قصة شمشون الجبار أحد قضاة بنى إسرائيل، لما كسر نذره وارتمى فى حضن الخطايا وفقد قوته. قبض عليه الفلسطينيون وقلعوا عينيه.. فلما فقد البصر وصار أعمى عاش

فى مذلة ما بعدها مذلة.. إلى أن جاء الوقت الذى عادت إليه قوته فقال للرب اسمعنى هذه المرة فقط لأنتقم لعينىَّ. كانت المرارة كلها فى فقد بصره وبصيرته.

+ اطلب من الرب بقلب كامل أن يحفظ نظرك ويقدس بصيرتك ويجعل سراج جسدك منيراً بنور الله.

اعرف حقيقة نفسك

«مَنْ مِنَ النَّاسِ يَعْرِفُ أُمُورَ الإِنْسَانِ إِلاَّ رُوحُ الإِنْسَانِ الَّذِي فِيهِ؟» (١كو ٢ : ١١).

+ الناس يعرفون عنا ما يرونه. وأحكام الناس فينا هى أحكام مبنية على ما نبدو عليه من الخارج. الشكل الخارجى قد يختلف كثيراً عما هو بالداخل. فكل إنسان يعمل جاهداً أن يظهر بمظهر لائق، ويجاهد لكى يخفى ما لا يليق أو ما لا يعجب. والطامة الكبرى هى ضبط السلوك الخارجى بينما الداخل على غير ذلك. وقد كانت هذه علة الكتبة والفريسيين والكهنة ومعلمى الناموس.

+ كانوا عارفين الحق وكان عندهم مفاتيح المعرفة. وقد قال الرب لهم بكل الأسف: «مَا دَخَلْتُمْ أَنْتُمْ، وَالدَّاخِلُونَ مَنَعْتُمُوهُمْ» (لو ١١: ٥٢). وقد يبدو أن هذه الضربة لم ينج منها إنسان ولا سيما المتدينين. وقد بلغ الأمر أن قيل عنهم «لَهُمْ صُورَةُ التَّقْوَى، وَلكِنَّهُمْ مُنْكِرُونَ قُوَّتَهَا» (٢تى ٣ : ٥).

ويجدر بالإنسان أن يراجع الويلات الثمانية التى قالها الرب للكتبة والفريسيين قديماً (راجع مت ٢٣). وإن كان هؤلاء قد مضوا ومضى زمانهم.. فلنعتبر نحن لئلا يصيبنا ما أصابهم.

اعرف حقيقة نفسك

الأمر يحتاج إلى مرات ومرات يجلس فيها الإنسان منفرداً فى هدوء، ويبدأ يزيل كل ما هو غريب على طبيعته المخلوقة مُجَدداً على صورة الله فى القداسة والحق.

هذه الأيقونة البديعة شوهتها الأيام والمعرفة الكاذبة ومعرفة أنواع الشرور وممارسة الكثير منها.. طبقات طبقات من سنين جهل وسلوك غير منضبط وخبرات شرور، وما علق فى الذهن من مبادئ عالمية أو أناس فاسدى الذهن عادمى الحق.. إلى خُلطة أناس غير مقدسين.. إلى انفتاح الذهن على طرق الشر والخبث والحقد وحب النقمة. إلى ما صار مخزوناً فى الذاكرة من مناظر ومواقف تخدم الشر والشهوات.. إلى حب المال وحب الظهور وما هو سائد من أعراف

العالم وحتمياته الكاذبة.. إلى ما جُرحت به النفس جراء سقوطها فى يد العدو وقبولها مشورات الخبث.. شئ مهول كتراكم جبال.

كم يحتاج إلى الخلود إلى الحق لكى يكشف الإنسان عوار نفسه، ويحتاج إلى دموع توبة وتبكيت وسهر وصلاة، حتى يصل إلى حقيقة النفس التى تغرَّب عنها.

لأنه لما قبلنا بإرادتنا كل ما عُرض علينا من أمور العالم وزيف كل ما فيه وتفاعلنا عائشين بالأيام والسنين حسب أهواء الناس كباقى المجتمع.. صار فينا بذلك تراكمات من عوائد وتصرفات بعيدة عن طبيعتنا الجديدة المخلوقة فى المعمودية.

لذلك وجب علينا أن نعود إلى أصلنا. وإن كانت الحياة بعيدة عن أصلنا أفقدتنا كثيراً من وعينا الروحى وقدراتنا، بل وحبنا وتمتعنا بما هو روحى سماوى. ولكن قوة التوبة والرجوع تجعلنا نتحصل على ما فُقد منا، بل بالحرى أكثر وأكثر، لأن لهيب الغيرة الروحية عند اكتشاف ما فُقد منا، يدفعنا إلى جهادات وصراع وتصحيح وحزن بل وبكاء وغيرة متقدة.. قادرة بالنعمة أن ترد إلينا ما كان لنا بالأكثر كثيراً.

+ خذ مثلاً.. إذا جلست إلى نفسك: بصلاة وهدوء وتذكرت أيام طفولتك الأولى.. كيف كان شكلك؟ كيف كان ذهنك وفكرك وقلبك.. وبساطة نفسك؟ كلها نور وكلها خير وكلها بساطة واتضاع ونقاوة قلب وفكر وفرح.. كل هذا الخير وهذه الصورة القديمة التى فى ذهنك هى حقيقة نفسك.

فأين أنت منها الآن؟!! وهل من رجوع؟ وهل ممكن الرجوع إلى تلك الصورة بعينها؟!! ألست تعلم أن هذا هو قول الرب: «إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (مت ١٨ : ٣).

التوبة هى الرجوع إلى الأصل. والأصل فينا هو معموديتنا المقدسة. وولادتنا من الله من بطن الكنيسة، مخلوقين «مَوْلُودِينَ ثَانِيَةً، لاَ مِنْ زَرْعٍ يَفْنَى، بَلْ مِمَّا لاَ يَفْنَى» (١بط ١ : ٢٣).

قد يندم الإنسان عندما يضع مقابله صورته الأولى وما فيها من براءة الأطفال وواقعه الحالى بكل ما فيه. ولكن هذا الندم لابد أن يكون الدافع الأول للرجوع. إذ أن الرب لم يغلق الباب

ولن يغلقه لأنه قال: «مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا» (يو ٦ : ٣٧). بل بالعكس فالرب ذاته قال: أنا «وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ» (رؤ ٣ : ٢٠).

إذن المفتاح من داخلك.. فى يدك وفى مقدورك.. فلتفتح للرب باب قلبك.

مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي

+ سر التناول من جسد الرب رهيب وعجيب.. هو سر الأسرار، عاشته الكنيسة منذ أول عصورها وسلَّم المسيح جسده للرسل فى علية صهيون وإلى اليوم.

آلاف السنين وما زال السر مستوراً لم يصل أحد إلى كماله. ملايين من البشر نالوه ولم يُستنفذ بعد. أليس هو جسد المسيح الإله ودمه الكريم يُقام فى ذات الوقت فى عشرات الآلاف من الأماكن، وهو ذات المسيح الواحد، كالشمس التى تدخل إلى ملايين الأماكن فى ذات الوقت. وهو يتوزع ولا ينقسم. مئات الملايين تناله وهو واحد أحد لا ينقسم. لا ينال الواحد جزءاً منه ولكنه يناله بالكلية، فكل واحد منا يأخذ المسيح، يدخل إلى داخل أعماق الملايين ولكنه غير محدود وغير محصور، مثل الشمس تخترق أكوام النفايات ولا تتسخ.

دخول جسد المسيح داخلنا نحن الخطاة يطهر الخطايا ويغسل الضمير. نحن نأكل الطعام لنحوله إلى طاقة للحركة والحياة، ولكن نأكل المسيح ليحولنا إليه لنحيا به وله.

هناك قول يقول: «المسيحيون يقيمون الافخارستيا والافخارستيا تقيم المسيحيين». الغرض الرئيسى من إعطاء الرب جسده لنا: لكى نحيا به ولا نحيا بعد بذواتنا وفكرنا وبشريتنا وغرائزنا المنحرفة.

نحن نأكله لكى نثبت فيه وهو فينا.

نحن نأكله لكي يكون لنا حياة أبدية به.

نحن نأكله لأنه خبز الحياة الأبدية.

بدون أكله ليس لنا حياة. به نحيا ونتحرك ونوجد.

وبدونه لا حياة ولا حركة حقيقية ولا وجود.

+ التناول بدون إدراك روحي حقيقي يفقد الإنسان كل شئ. مثل الذين أكلوا المن – خبز الله – النازل من السماء. أكلوه بحاسة بشرية وبدون وعي روحي.. أكلوه مادياً فتأففوا منه وسئموه وسموه الطعام السخيف.. فلم يسر الله بهم وماتوا وطُرحت جثثهم في القفر.

لذلك نبهنا السيد بقوله لليهود «آبَاؤُكُمْ أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ وَمَاتُوا. هذَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ، لِكَيْ يَأْكُلَ مِنْهُ الإِنْسَانُ وَلاَ يَمُوتَ» (يو ٦ : ٤٩ – ٥١)

+ لا بد من المذاقة الروحية الحقيقية لنستطعم خبز الحياة.

خبز الحياة الذى لا يُقاس بالأمور المادية ولا بالعقلانية ولا بالحواس الجسدية من نظر ولمس وتذوق، بل بالحواس الروحية النقية، التى لإنساننا الداخلي، وبالبصيرة الروحيه نراه مع الملائكة الذين يخدمونه ويسترون وجوههم من بهاء مجده. وبالخشوع الروحي الداخلي نقترب إليه وبالخوف الحقيقي نقبله كما قبل إشعياء جمرة النار من يد الساروف (واحد من السيرافيم) وبالإيمان نسمع ذات الكلام «إِنَّ هذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ، فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ، وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيَّتِكَ». (إش ٦ : ٧).

+ ولكن أين هذا من واقعنا اليوم. كثر المتناولون ولا عدد لهم في كل كنيسة وفى كل القداسات وكل الأيام ولكن قلما نجد أثراً للتناول.

أين المسيح الحي في هؤلاء.. فهو قال «مَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي» (يو ٦ : ٥٧). نتناول كل يوم ولكن نعيش بذواتنا ولذواتنا. نتناول خبز السماء ولكن حياتنا تشهد أننا ما زلنا أرضيين ترابيين. نتناول لغفران الخطايا ولكن ما زلنا متمسكين بخطايانا لأننا نتناول بدون توبة.

+ دينونة عظيمة للذي يتناول بعدم تمييز «غَيْرَ مُمَيِّزٍ جَسَدَ الرَّبِّ» (١كو ١١ : ٢٩).

+ دينونة عظيمة للذي يتناول بدون استحقاق.

+ الاستعداد للتناول بالتوبة والاعتراف والصلاة المنسحقة لقبول المسيح. وصلاة الشكر والامتنان بعد التناول يجعل الإنسان في نمو مستديم.

+ الروتين وحضور القداسات كما لقوم عادة يقتل الحياة الروحية بجملتها، ويتحول الإنسان فيها كآلة بلا إحساس.. الآباء القديسون بسبب حرصهم الشديد وعمق علاقتهم بالمسيح، لم يدخل إليهم الروتين والآلية، بل ظلوا مدي الحياة في حِس مرهف ويقظه روحية لا سيما في ممارسة الأسرار، فكانوا يزدادون كل مرة يتزودون فيها من الذخيرة الروحية.

+ أمِل أذنك الروحية عندما تسمع القول: «القُدْسات للقديسين» واطلب إلى القدوس أن تصير القدسات لك للتقديس وتطهير الحياة برمتها.

+ قال لي قداسة البابا شنودة (نيَّح الله نفسه) إننى حينما أتناول أقول للرب «ليس من أجل استحقاقي بل من أجل احتياجي» هكذا يجب أن نقترب إلى السر الرهيب.

من يأكلني يحيا بيَّ

الإيمان بالمسيح بتجسده وعمله الخلاصى على الصليب، وقيامته من الأموات وصعوده إلى السموات وجلوسه عن يمين الآب وإرساله موعد الآب، روح الحق الذى من عند الآب ينبثق. وكل ما عمله المسيح وعلَّم به وكل آيات الشفاء والمعجزات والتعليم الإلهى.. وكل ما يختص بحياة الأبد وميراث الملكوت، كل هذا ذخَّره المسيح لنا حينما أعطانا جسده مأكلاً حقيقياً ودمه لنشربه مشرباً حقيقياً.

فالإيمان بالقلب والاعتراف باللسان معتبران أمراً شفوياً يخص التصديق والكلام العلن. أما التناول فهو فعل وليس قولاً.

التناول أكل وشرب.. وتناول الجسد المكسور بالحب هو فعل حب إلهى فائق، وشرب الدم المهراق على الصليب هو فعل الذبيحة التى اشتمَّها الآب وقت المساء على الجلجثة.

فكون المسيح يعطى ذاته ويبذلها من أجل خلاص العالم ويسلمه لنا فعلاً حقيقياً، ولكنه مخفى فى سر إلهى فائق، ويقدمه لنا فى الهيئة كخبز نازل من السماء لكى يأكل منه الإنسان فيأكل الحياة الأبدية، فهذا أمر يفوق العقول ويتجاوز أفهام البشر والملائكة معاً.

+ الجسد المبذول هو عطية الله لحياة الإنسان الأبدية لأن الرب يسوع إذ قال: «مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ» (يو ٦ : ٥٤). سيقيمنا معه، وجسده الذى نتناوله هو القيامة بذاتها. فالتناول من الجسد الأقدس هو الذى يقيمنا الآن وفى الدهر الآتى.

+ وكما أن طعام الجسد يقوته ويعطيه حياة، إذ لا يعقل أن يحيا الجسد بدون طعام.. هكذا صار خبز الحياة الأبدية بالنسبة لأرواحنا.

+ قال الرب: «مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلاَ يَجُوعُ» (يو ٦ : ٣٥). هو شبع نفوسنا.. وحين نناله لا نجوع بعد إلى العالم.

«لِمَاذَا تَزِنُونَ فِضَّةً... لِغَيْرِ شَبَعٍ؟» هكذا تساءل إشعياء النبى «أَيُّهَا الْجياعُ... أَيُّهَا الْعِطَاشُ ... تَعَالَوْا وَالَّذِي لَيْسَ لَهُ فِضَّةٌ... خذوا وَكُلُوا... اِشربوا وَلْتَتَلَذَّذْ بِالدَّسَمِ أَنْفُسُكُمْ» (إش ٥٥ : ١ ، ٢). وهو بدون فضة أو ذهب إذ يُعطى مجاناً، ولكنه ليس رخيصاً لأن قيمته أغلى من كل ممتلكات الدنيا. هو ليس من هذه الخليقة.. بل هو جسد ابن الله بالحقيقة.

من يا ترى يستطيع أن يدرك كمال هذا السر؟!! نحن نقبل هذه النعمة بإيمان بغير فحص العقل، ونشترك فى الجسد الواحد الذى يحولنا إليه ويوحدنا بعضنا مع بعض، كأعضاء فى جسد واحد.

هذا هو سر الحب وسر الحياة.. مستحيل على الطبيعة البشرية أن تذوق هذا الحب بعيداً عن سر جسد المسيح، لأن فيه وحده عدم الموت والحب المطلق.

+ الاستعداد للتناول من الجسد والدم يكون كما قال الرسول: «لِيَمْتَحِنِ (ليفحص) الإِنْسَانُ نَفْسَهُ» (اكو ١١ : ٢٨). أولاً من جهة المحبة، أن يكون ذا قلب محب للأخوة بصفاء النية، ويكون مختبراً السلام الإلهى مع جميع الناس.

- «اَلْمَحَبَّةُ فَلْتَكُنْ بِلاَ رِيَاءٍ» (رو ١٢ : ٩).. الرياء يُفسد المحبة.

- «أَحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا مِنْ قَلْبٍ طَاهِرٍ بِشِدَّةٍ» (ابط ١ : ٢٢).. لا يوجد إنسان كامل فى المحبة ولا يوجد أحد لم يتعكر قلبه مطلقاً.. هذا أمر مؤكد ولكن إن اتسخ القلب بعكارة العداوة أو عدم المحبة من جهة إنسان فيوجد ينبوع لغسل الخطايا وتطهير القلب. الإنسان المسيحى يُسرع إلى ينبوع دم المسيح بالصلاة والتوسل.. ولا يطيق أن يحيا فى العداوة.

«قوة خرجت منى»

فى معجزة شفاء المرأة نازفة الدم المذكورة فى إنجيل لوقا أصحاح ٨ يقول الإنجيلى إنه لما جاءت المرأة من وراء ولمست طرف ثوب الرب أنها شُفيت فى الحال ووقف نزف دمها.. فالتفت الرب العارف كل شئ فاحص القلوب ومختبر الكلى وقال: «مَنِ الَّذِي لَمَسَنِي؟» بالطبع لم يكن خافياً على الرب.. بل لقد عرفها، عرف ما أضمرته فى قلبها بالإيمان الذى سكن فيها حين قالت: أنا إن لمست فقط طرف ثوبه شُفيت.

لذلك بعد أن أظهرها الرب للجميع مدح إيمانها ودعاها ابنته قائلاً لها: «ثِقِي يَا ابْنَةُ، إِيمَانُكِ قَدْ شَفَاكِ، اِذْهَبِي بِسَلاَمٍ». والذى يجذب الانتباه قول الرب: «لأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّ قُوَّةً قَدْ خَرَجَتْ مِنِّي». لأنه لما سأل الرب من الذى لمسنى؟ ملَكَ العجب على الذين كانوا حوله إذ قد كان الزحام حول الرب شديداً جداً، حتى قال القديس بطرس ومن معه «يَامُعَلِّمُ، الْجُمُوعُ يُضَيِّقُونَ عَلَيْكَ وَيَزْحَمُونَكَ، وَتَقُولُ مَنِ الَّذِي لَمَسَنِي؟». فكانت إجابة الرب «قَدْ لَمَسَنِي وَاحِدٌ، لأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّ قُوَّةً قَدْ خَرَجَتْ مِنِّي».

الأمر إذن غاية فى الوضوح فشتَّان بين من يزحم وبين من يلمس، بين من كان معدوداً إنه سائر مع المسيح أو قريب منه وبين من يتلامس مع الرب تلامساً حقيقياً.

لقد خرجت قوة شفاء من الرب واستقرت فى المرأة التى لمسته ليس بطرف أصبعها بل تلامست معه بقلبها العامر بالإيمان.

كل مرة أقترب لألمس الرب يلزمنى هذا القلب وهذا الإيمان، لأشعر بالقوة الخارجة وأتحصل عليها، ويقف نزيف الدم الذى يؤدى إلى الموت.

ربى يسوع... العارف قلب كل واحد هبنى هذه النعمة، وأمر لى بالقوة الخارجة من عندك، حتى تسكن أعماقى فأشعر فى الحال بنعمة الحياة.. حياة المسيح تدب فىَّ.. حينئذ يتوقف عمل الموت فى الحال.

هبنى يا رب أن أتلامس معك كل يوم وكل ساعة.. ومهما يكن من زحام حولك فى كل مكان وكل زمان، أعطنى نصيب هذه المرأة، وأن أطلبك أنت وحدك من عمق نيتى، وأن لا يشغلنى الزحام أو يعوقنى أو يعطلنى عن التلامس معك.

لاسيما يا سيدى حينما اقترب وأتلامس مع جسدك المقدس ودمك الكريم.. هو فى الواقع تلامس حق، لأن جسدك ودمك هما الحق بذاته. وما أحتاجه فى الحقيقة هو خلوص النية واستقامة الغرض، لكى أتقرب وأنا واثق أننى حالما أتلامس تسرى فىَّ قوة الحياة والشفاء.

فلتدركنى نعمتك يا سيدى واسمح لعبدك أن يقترب منك للتلامس الحقيقى، فأحظى بهذا النصيب الصالح.

وأخيراً إذ أقف أمامك معترفاً بفضلك علىَّ، وأخبر الكل بعمل نعمتك، أسمع صوتك الإلهى المفعم صلاحاً «ثِقِي يَا ابْنَةُ، إِيمَانُكِ قَدْ شَفَاكِ، اِذْهَبِي بِسَلاَمٍ». وإذ أنعم بهذا السلام من فمك الإلهى، تكون قد تبدلت الأمور فى حياتى.. من مرض إلى صحة، ومن موت إلى حياة، ومن خوف إلى سلام إلهى لا يُنطق به؛ آمين.

«اَلْخَمْرُ مُسْتَهْزِئَةٌ»

هذا ما كتبه الروح من كلام الحكمة الإلهية فى سفر الأمثال، أى ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة. ومازالت كلمة الرب تنير الطريق للسالكين فيه. فإن عرفت أن طريق شرب الخمر هو طريق الهزء، فمن يا ترى يريد لنفسه أن يكون هكذا... «مَنْ يَتَرَنَّحُ بِها فَلَيْسَ بِحَكِيمٍ» (أم ٢٠ : ١). فهل ترضى بذلك؟

قال أيضاً الحكيم: «لِمَنِ الْوَيْلُ؟ لِمَنِ الشَّقَاوَةُ؟ لِمَنِ الْمُخَاصَمَاتُ؟ لِمَنِ الْكَرْبُ؟ لِمَنِ الْجُرُوحُ بِلاَ سَبَبٍ؟ لِمَنِ ازْمِهْرَارُ الْعَيْنَيْنِ؟ لِلَّذِينَ يُدْمِنُونَ الْخَمْرَ، الَّذِينَ يَدْخُلُونَ فِي طَلَبِ الشَّرَابِ الْمَمْزُوجِ. لاَ تَنْظُرْ إِلَى الْخَمْرِ إِذَا احْمَرَّتْ حِينَ تُظْهِرُ حِبَابَهَا فِي الْكَأْسِ وَسَاغَتْ مُرَقْرِقَةً. فِي الآخِرِ تَلْسَعُ كَالْحَيَّةِ وَتَلْدَغُ كَالأُفْعُوانِ. عَيْنَاكَ تَنْظُرَانِ الأَجْنَبِيَّاتِ، وَقَلْبُكَ يَنْطِقُ بِأُمُورٍ مُلْتَوِيَةٍ. وَتَكُونُ كَمُضْطَجِعٍ فِي قَلْبِ الْبَحْرِ، أَوْ كَمُضْطَجِعٍ عَلَى رَأْسِ سَارِيَةٍ. يَقُولُ: ضَرَبُونِي وَلَمْ أَتَوَجَّعْ! لَقَدْ لَكَأُونِي وَلَمْ أَعْرِفْ! مَتَى أَسْتَيْقِظُ؟ أَعُودُ أَطْلُبُهَا بَعْدُ!» (أم ٢٣ : ٢٩ – ٣٥).

تأمل كيف تصف كلمة الله بالتدقيق ماذا تفعل الخمر بالإنسان؟! حينما يسلم نفسه لها ماذا عساه أن يجنى، أو أى مكسب يناله من وراء ذلك؟ وقد وصف الروح النصيب السئ والعاقبة المُرَّة بكلمات الحكمة الإلهية.. تأملها بتفصيل: لمن الشقاوة، لمن الويل، لمن المخاصمات، لمن الكرب، لمن الجروح بلا سبب، لمن ازمهرار العينين.

لماذا يشرب الإنسان الخمر؟ لكى يفرح، لكى ينسى تعبه فيستريح، لكى يخرج مما هو فيه، لكى ينتشى ويضحك.. لأسباب وأسباب بلا حصر.. ولكن كلمات الحكمة الإلهية تثبت العكس تماماً: فبدل السلام الذى يتمناه كل أحد، فإن الذين يشربون الخمر هم كثيرو النزاع والغضب والعنف. فالجرائم التى يرتكبها مدمنو الخمر لا عدد لها ولا حصر. فهل تأتيهم الخمر بالسلام الداخلى؟ حاشا.. لا سرور ولا سلام حقيقى إلا فى الحياة فى المسيح.

القديس بولس الرسول يوصى المؤمنين «لاَ تَسْكَرُوا بِالْخَمْرِ (لا تشربوا الخمر) الَّذِي فِيهِ الْخَلاَعَةُ، بَلِ امْتَلِئُوا بِالرُّوحِ» (أف ٥ : ١٨). الامتلاء بالروح فيه الفرح الحقيقى الذى لا يُنطق به.

فرح الخمر إلى حين ثم يعود الإنسان إلى كآبة أكثر. أما فرح الروح فهو حقيقى دائم يزداد من يوم إلى يوم.

وراء شرب الخمر والإدمان.. هناك خديعة العدو فهو كذاب وأبو الكذاب، هو يغلف بضاعته بغلاف الإغراء والغش.. ويخفى الحق. شهوة العيون حين تنظر إلى الخمر كشفها الروح وحذر قائلاً: لا تنظر إلى الخارج، إلى الشكل المغرى. ووصفها بالتفصيل لكى لا تُخدع بها.

تأمل السم القاتل المخفى فيها والنتاج النجس الذى يتسبب عنها.. إنها تطير بصواب الإنسان وتذهب بعقله واتزانه وكرامته.. ألم يتعرى لوط البار إذ شرب الخمر؟

بل حينما يطير عقل الإنسان بالخمر يفكر بما لا يليق فينحدر بالشهوات إلى طلب النجاسة والزنى. ارتباط وثيق بين الاثنين. فلماذا يفقد الإنسان أعز ما له؟

لما سكر احشويرش الملك صنع فعلاً قبيحاً وطلب زوجته لكى يرى العظماء جمالها!! (أستر ١ : ١٠ – ١٢). ولكنها كانت أكثر منه حكمة وتعففاً واستهانت بغضب الملك وضحت بمركزها كملكة ولم تسلم نفسها لمثل هذا الفعل القبيح.

الخمر مستهزئة.. يجب أن نؤمن بكلام الحكمة الإلهية ولا نسلِّم أنفسنا لخديعة العدو.

+ بعض الناس يسيئون فهم ما قاله القديس بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس عندما نصحه قائلاً: «لاَ تَكُنْ فِي مَا بَعْدُ شَرَّابَ مَاءٍ، بَلِ اسْتَعْمِلْ خَمْرًا قَلِيلاً مِنْ أَجْلِ مَعِدَتِكَ وَأَسْقَامِكَ الْكَثِيرَةِ» (١تى ٥ : ٢٣). وقد جعلوا هذا الأمر كتصريح لشرب الخمر أو لتخدير الضمير أو نوع من التحايل على كلمة الله. وهذا لا يليق بأولاد الله.

فالقديس تيموثاوس رغم كثرة أمراضه ورغم حياته فى أجواء باردة كان يرفض أن يشرب الخمر حتى ولو على سبيل العلاج كدواء. وهذا استدعى القديس بولس أن يرسل إليه فى الرسالة كأمر من أب لابنه لكى إذ يتعافى من أمراضه يواصل خدمته بلا مانع.

«مَغْبُوطٌ هُوَ الْعَطَاءُ»

ما أجمل قول الرسول بولس الذى قاله عن فم المسيح.. لم يُذكر هذا القول فى الأناجيل الأربعة ولكنه سمعه منه شخصياً.

مصدر العطاء هو المسيح ذاته.. الذى بذل ذاته وأعطانا جسده ودمه. هذا هو قمة السخاء وبالفعل «لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هذَا أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ.» (يو ١٥ : ١٣). وحين يملك المسيح على القلب يفيض القلب عطاءً وسخاءً وفرحاً. أما الشح والبخل فهى علامات للأنانية وحب الذات.

+ قرأت اليوم خبر انتقال إنسان فى بلغاريا إلى الفردوس عن عمر يناهز ١٠٣ سنة. كان فى بداية حياته يمتلك مزرعة باعها وتصدق بها وعاش فقيراً معدماً باقى حياته.. سكن فى كوخ صغير وصار يتسول كل يوم فى شوارع صوفيا (عاصمة بلغاريا) وهو يصلى الصلاة الدائمة. وكان الناس يشفقون عليه بسبب منظره المسكين وسنه المتقدمة. والغريب فى أمره أنه لم يكن يقتنى شيئاً ولا يتسول لنفسه.. بل كان كل ما يحصل عليه فى يومه يقدمه خدمة للأيتام فى الملاجئ وللمحتاجين على اختلاف حالاتهم.. تعجبت جداً. إلى هذه الدرجة.. لعشرات السنين يفعل هذا؟ ما الدافع؟ وما هو السر وراء ذلك؟

بكل تأكيد إنه ذاق نعمة وغبطة لم يذقها أحد.. لقد اختبر النعمة أن يعطى ويفرح ولما باع ما كان له، لم يكتف بل ظل فعل الخير والاحسان يدفعه دفعاً بلا توقف وبلا كلل. وقبل على نفسه أن يصير فقيراً بل شحاذاً من أجل خدمة أخوة الرب الأصاغر.

+ بل يحكى تاريخ الكنيسة قصة القديس بطرس الذى كان بخيلاً جداً فلما افتقدته النعمة تبدَّل حاله إلى أكثر الناس عطاءً. فلما باع كل ما له، باع نفسه عبداً وتصدق بثمن حريته للمحتاجين.

+ إنها نعمة لا يعرفها إلا المختبرون.. هى بعيدة عن كل المظاهر والإعلانات والافتخار الباطل.. هى نعمة باطنية حرص عليها كل من اختبرها. هم أحبوا المسيح حباً طاغياً.. أحبوه فى الفقراء والضعفاء والمرضى وكل ذى حاجة. رأوه عرياناً وجائعاً وعطشاناً ومحبوساً ومريضاً فأتوا إليه وخدموه.

+ الأمر ليس مقصوراً على الأغنياء الذين يتصدقون من فائض ما عندهم، فهناك فقراء جداً بل ومعدمون ولكنهم يحبون العطاء.

وقصة الأرملة الفقيرة التى مدحها المسيح فى الإنجيل، وقبل عطية الفلسين من يدها، وشهد عنها أنها أعطت أكثر من جميع الذين قدموا. هذه القصة قد صارت نموذجاً وأيقونة للعطاء المقبول لدى المسيح. وقد جعلتها الكنيسة فى أوشية القرابين فنقول هكذا للرب «وكما قبلت إليك قرابين هابيل الصديق وذبيحة أبينا ابراهيم وفلسى الأرملة هكذا نذور عبيدك اقبلها إليك». فكأن فلسى الأرملة قد توازت مع ذبيحة أبينا ابراهيم وقرابين هابيل.. ياللعجب!!

لذلك أعطِ روح الله الحالّ فيك أن يستخدمك للعطاء. لقد قال الرسول عن المؤمنين «فَاضَ وُفُورُ فَرَحِهِمْ وَفَقْرِهِمِ الْعَمِيقِ لِغِنَى سَخَائِهِمْ، لأَنَّهُمْ أَعْطَوْا حَسَبَ الطَّاقَةِ، أَنَا أَشْهَدُ، وَفَوْقَ الطَّاقَةِ، مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ» (٢كو ٨ : ٢ ، ٣). لقد صار العطاء تلقائياً عندما حلت نعمة الله عليهم كما كان فى البداية أيضاً، فكل الذين آمنوا وقبلوا روح الله تخلُّوا تلقائياً عما كان لهم بكل الفرح والسرور، دون أن يسألهم أحد أن يفعلوا ذلك.

+ السر أنهم أعطوا أنفسهم للرب.. فعمل بهم وفيهم ثمر السخاء والبذل بكل الفرح، ليس عن اضطرار أو بسبب الإحراج أو حُبّ الظهور. لقد تبعوا قول الرب القائل «لتكن صَدَقَتُكَ (رحمتُك) فِي الْخَفَاءِ» (مت ٦ : ٤).

+ كذلك الأمر يحتاج إلى تدريب.. فالطبيعة البشرية تحب الأخذ دون العطاء، وتفرح بالامتلاك والاكتناز. أما النعمة فعلى العكس، فالنعمة سخية باذلة مضحية لا تطلب ما لنفسها. فعلينا إذن أن ننحاز للنعمة، لكى نغلب الطبيعة ونُسرُّ بحركات النعمة التى تقودنا لعمل الخير، وتفتح لنا المجالات وتشجعنا وتُحبِّب لنا البذل والعطاء.

اسلكـوا بالـروح

بحسب ما تسلمنا من إيمان، إننا حينما اعتمدنا للمسيح قد لبسنا المسيح.. وبحسب ما كُتب أيضاً صرنا هيكلاً للروح «أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ، وَرُوحُ اللهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ... لأَنَّ هَيْكَلَ اللهِ مُقَدَّسٌ الَّذِي أَنْتُمْ هُوَ» (١كو ٣ : ١٦ ، ١٧)، وبحسب الإيمان أيضاً «جَمِيعُنَا سُقِينَا رُوحًا وَاحِدًا» (١كو ١٢ : ١٣)، «وَإِنْ كَانَ رُوحُ الَّذِي أَقَامَ يَسُوعَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَاكِنًا فِيكُمْ، فَالَّذِي أَقَامَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَيُحْيِي أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أَيْضًا بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيكُمْ» (رو ٨ : ١١).

ومثل ذلك كثير.. والسؤال الذى يجب أن يلح علينا: كيف أسلك بالروح؟ أو كيف أنقاد بالروح حسب المكتوب «لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَنْقَادُونَ بِرُوحِ اللهِ، فَأُولئِكَ هُمْ أَبْنَاءُ اللهِ» (رو ٨ : ١٤).

والواقع العملى إننا حصلنا على كل وعود الله الصادقة، والواقع العملى أيضاً أننا نلنا وأخذنا.

+ فإن كان العالم واقع تحت سلطان روح الظلمة، «الرُّوحِ الَّذِي يَعْمَلُ الآنَ فِي أَبْنَاءِ الْمَعْصِيَةِ» (أف ٢ : ٢). وهذا بالطبيعة يثمر كل أفعال الشر والنجاسات والطمع والكذب والخبث والحقد والقتل، وكل باقى الأفعال التى نراها فى العالم، ونسمع عنها كل يوم وفى كل مكان. فإذن الحاجة الماسة الشديدة أن يوجد أولاد الله سالكين بالروح المضاد لروح العالم، يشهدون ضده ويشهدون عليه ويدينون أفعاله وكل قوته الشريرة.

«اسْلُكُوا بِالرُّوحِ... الَّذِينَ يَنْقَادُونَ بِرُوحِ اللهِ» (غل ٥ : ١٦، رو ٨ : ١٤)

+ لا تطفئوا الروح (هو نار غير مادية لكن ينطفئ فى الهالكين).

+ إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد فستحيون (هذا هو عمل الروح).

+ أُصلِّى بالروح (بدونه لا صلاة).

+ لا تحزنوا الروح (بل على العكس فرّح قلب الله بتوبتك).

+ جئت لأُلقى ناراً.. وكيف تضرم النار (أضرم الموهبة التى فيك).

+ الروح يحيى (بدونه الموت حتماً).

+ روح الحق (ضد روح الضلال الذى فى العالم).

+ روح الذى أقام يسوع (يقيمنا ويحيى أجسادنا وأرواحنا).

+ روح البنوة (به صرنا أبناء للآب).

+ روح الله (من يقبله؟).

+ امتلئوا بالروح (إلى كل ملء الله).

+ كلنا سُقينا روحاً واحداً (الماء والروح).

+ يُبكِّت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة.

+ يأخذ مما للآب ويخبركم (المسيح لم يتكلم من ذاته وحده بل كما سمع من الآب).

+ ذاك يمجدنى (الآب يمجد الابن، والروح يمجد الابن، والابن يمجد الآب).

+ يتكلم بكل ما قلته لكم (الروح والكلمة).

كيف أسلك بالروح؟ أو كيف أنقاد بالروح؟

بادئ ذى بدء قل لى: هل تشعر بروح الله فى داخلك؟ ألم يقل المسيح إنه ينبع فى الداخل كنبع الحياة الأبدية؟

+ هل تشعر بحضوره المفرح وحلوله المشبع الذى يسيطر على كل ما فيك؟

+ هل تشعر به يملأ كيانك؟

+ هل تستشعر عذوبة حلول الروح وعزاءه الذى لا يعبر عنه؟

+ هل تسمع صوته؟

+ هل تخضع لتلبيته عندما ينخس الضمير ويوقظ ما كان نائماً من مبادئ ومُثل، بل حينما يقيم ما كان ميتاً من الحواس المقدسة؟

+ هل تستنشق أريجه الإلهى حين يملأ الداخل بعطر القداسة ونسيم الوداعة الإلهية؟

+ هل تخلد إلى السكون العميق الذى يسدله الروح على الحواس ويجعلها مرهفة للإنصات؟

+ هل تهب عليك ريحه فتسيل المياه من الداخل، فتجرى من الينبوع إلى المآقى كسواقى الله؟

+ هل صار الصوت الخفيف والنسيم الهادى يلفك من كل ناحية، فتشعر أنك جزء من وجوده؟

+ أم هل لحقتك النار فى طرف من أطراف كيانك، فحولت البرودة بل وألغتها وأشعلت الغيرة والفرح؟

+ وهل سعدت بكل هذا أو بعضه وهل طلبت المزيد؟

+ وهل توسلت أن تدوم هناك؟

قال الروح القدس للرسل: «أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ....». (أع ١٣ : ٢). لقد حل عليهم فتكلموا بلغات، هو نطق بلسانهم. لم يكونوا هم المتكلمين بل الروح الحال فيهم. تكلموا بكل اللغات أى وصلوا إلى كل إنسان وتواصلوا معه كما أعطاهم الروح أن ينطقوا.

فى الأصل لم يكن لهم صوت، ولم يكن أحد ليسمع صوتهم «الذين لم تُسمع أصواتهم خرجت أصواتهم إلى الأرض كلها وبلغت أصواتهم مسامع المسكونة» (مز ١٩ : ٣ ، ٤). صار صوتهم وكلامهم مملوءاً بالروح.. وحيثما هب الروح سُمع صوتهم لأن «اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ، وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا» (يو ٣ : ٨). فحين حملوا سلام المسيح إلى كل بيت، حل سلامه لما قالوا: السلام لهذا البيت.

كلامهم نخسَ القلوب التى كانت نائمة فاستيقظت.. كلامهم أحيا الموتى وأرجعهم إلى الحياة. كلمتهم صارت أقوال الله بسبب الروح المتكلم منهم «تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ» (٢بط ١ : ٢١). ولم تأت كلمة منهم بإرادة الناس بل بوحى الروح.

نعم تكلم بهم وتكلم فيهم، فأرشدهم وقادهم وذكَّرهم بكل ما قاله السيد. تكلم فيهم فسمعوه ووعوا قوله وإلهاماته. لما منعهم من الذهاب إلى أماكن امتنعوا، ولما دفعهم للكرازة والشهادة أطاعوا وعملوا بحسب إرادته. لما وجههم إلى أى جهة لم يعاندوا. صاروا آلات طيّعة فى يد الروح فعمل بهم بلا مانع. ملأهم إلى كل الملء فامتلأوا، إذ لم يكن فيهم معاند كقول الرسول وظلوا يمتلئوا يوماً بعد يوم إلى منتهى الأيام، وكانوا يمتلئون كلما خدموا وكرزوا.

ملأهم من الحكمة فلم يستطع أحد أن يقاوم الحكمة التى فيهم، وقد صح التعبير «لأَنَّ جَهَالَةَ اللهِ أَحْكَمُ مِنَ النَّاسِ! وَضَعْفَ اللهِ أَقْوَى مِنَ النَّاسِ!» (١كو ١ : ٢٥). ملأهم حكمة ليست من هذا الدهر ولا تضاهيها حكمة حكماء هذا الدهر. على أنهم كلما زادوا فى الاتضاع والمسكنة كلما زادوا فى النعمة والحكمة وهكذ كرزوا وعلَّموا.

«انْظُرُوا دَعْوَتَكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، أَنْ لَيْسَ كَثِيرُونَ حُكَمَاءَ... بَلِ اخْتَارَ اللهُ جُهَّالَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ» (١كو ١ ٢٦ ، ٢٧). صارت حكمتهم ليس نتاج رجاحة العقل والفلسفة، بل نازلة من فوق. الحكمة البشرية تجعل الإنسان منتفخاً متكبراً متباهياً مرتفعاً، وعلى العكس صارت حكمة الرسل، فاتضعوا بالأكثر وقالوا: «أَنَا مَا أَنَا... وَلكِنْ نِعْمَةُ اللهِ الَّتِي مَعِي» (١كو ١٥ : ١٠).

الروح بشفاعة داخلية وأنَّات لا يُنطق بها ضبط ملكاتهم وقدس نياتهم ووحد طاقاتهم، واستخدمها الروح لتجديد الخليقة وتقديسها بغسل الماء بالكلمة. وضْع أيديهم لنقل سر الروح إلى كل من وضعوا عليه اليد. كانت الأيادى المنظورة تخفى من ورائها سر الروح الذى لا يُرى، ولكنه العامل والفاعل والمستعد والمنحدر والمنسكب، دون أن تدركه الحواس الخارجية.

+ ملأهم الروح إلى كل الملء، فكرزوا للمؤمنين أن يسعوا للوصول إلى ملء قامة المسيح. كان الملء فيهم دائماً مستديماً بغير انقطاع بل بفيض وغزارة. كانوا فى الحالة التى عبَّر عنها القديس يوحنا الرائى «لِلْوَقْتِ صِرْتُ فِي الرُّوحِ» (يو ٢ : ٤). إذ كما قال القديس بولس: «أَفِي الْجَسَدِ لَسْتُ أَعْلَمُ، أَمْ خَارِجَ الْجَسَدِ لَسْتُ أَعْلَمُ» (٢كو ١٢ : ٢). هكذا كانوا وهكذا غيَّروا وجه الأرض. فإن كان الجسد ضعيفاً بحسب طبيعته، ولكن الروح جعل أرواحهم فى قوة الله. بحب الجسد ذاقوا الآلام والأتعاب والأسهار، وبحسب الجسد ذاقوا مرارة الاضطهاد والتعذيب، وحتى القيود كمذنبين، وحتى التشريد والقمع، وأخيراً قبلوا فى أجسادهم جراحات الموت بحد السيف، ولكن بحسب الروح الساكن فيهم لم يعترهم الخوف ولا الجبن ولا الضعف بل كانوا مؤازرين بقوة الله.

+ «شَاكِرِينَ الآبَ الَّذِي أَهَّلَنَا لِشَرِكَةِ مِيرَاثِ الْقِدِّيسِينَ فِي النُّورِ، الَّذِي أَنْقَذَنَا مِنْ سُلْطَانِ الظُّلْمَةِ، وَنَقَلَنَا إِلَى مَلَكُوتِ ابْنِ مَحَبَّتِهِ» (كو ١ : ١٢ ، ١٣).

سلطان الظلمة، روح الظلمة، روح الضلال، الروح الشرير «فَإِنَّ مُصَارَعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلاَطِينِ، مَعَ وُلاَةِ الْعَالَمِ عَلَى ظُلْمَةِ هذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ. مِنْ أَجْلِ ذلِكَ احْمِلُوا سِلاَحَ اللهِ الْكَامِلَ... » (أف ٦ : ١٢ ، ١٣).

إن كنا فى العالم بحسب قول الرسول سنواجه ونصارع مع هذه القوات الشريرة، فلا يوجد طريق للنصرة على هذه القوى الرهيبة سوى الملء من روح الله القدوس. وإلا.. فكيف يقدر الإنسان الضعيف الترابى بحسب طبيعته أن يتفوق على أرواح الظلمة؟

فأى شكر يجب أن نقدمه إلى الله من أجل عطية الروح القدس الذى سكن فينا؟! منذ أن سقط الإنسان وسلم إرادته لعدو الخير بإطاعة مشورته، حين دخل الموت إلى العالم بحسد إبليس، منذ ذلك الحين صار روح الظلمة متسيداً على الإنسان لأنه خضع له بالإرادة. فلما ظهر عطف مخلصنا الله بتجسده الإلهى، وصنع الخلاص وحررنا من عبودية إبليس.. «صِرْنَا عَبِيدًا لِلْبِرِّ» (رو ٦ : ١٦) بحلول روح الله فينا.

وفى طقس المعمودية المقدسة يُطرد الروح النجس من مسكنه بقوة الله وباسم يسوع المسيح. هذا السلطان أعطاه الله للرسل، حين أعطاهم قوة وسلطاناً على إخراج الشياطين ونفخ فى وجوههم وأرسلهم أن يشفوا المرضى ويخرجوا الشياطين ويقيموا الموتى. هكذا بعد الصلاة ينفخ الكاهن فى المُعمَّد ويقول بسلطان: "اخرج أيها الروح النجس". وبالصبغة المقدسة وسر الميرون يحل الروح القدس فى المُعمد ويصير مسكناً لله بالروح.

ولكن كلام المسيح فيه لنا تحذير غاية فى الخطورة والأهمية لابد أن يؤخذ مأخذ الجد: «إِذَا خَرَجَ الرُّوحُ النَّجِسُ مِنَ الإِنْسَانِ يَجْتَازُ فِي أَمَاكِنَ لَيْسَ فِيهَا مَاءٌ، يَطْلُبُ رَاحَةً وَلاَ يَجِدُ. ثُمَّ يَقُولُ: أَرْجعُ إِلَى بَيْتِي الَّذِي خَرَجْتُ مِنْهُ. فَيَأْتِي وَيَجِدُهُ فَارِغًا مَكْنُوسًا مُزَيَّنًا. ثُمَّ يَذْهَبُ وَيَأْخُذُ مَعَهُ سَبْعَةَ أَرْوَاحٍ أُخَرَ أَشَرَّ مِنْهُ، فَتَدْخُلُ وَتَسْكُنُ هُنَاكَ، فَتَصِيرُ أَوَاخِرُ ذلِكَ الإِنْسَانِ أَشَرَّ مِنْ أَوَائِلِهِ» (مت ١٢ : ٤٣ – ٤٥).

«إِنْ كَانَتْ شَرِكَةٌ مَا فِي الرُّوحِ» (فى ٢ : ١)

«أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ لِكَيْ يَكُونَ لَكُمْ أَيْضًا شَرِكَةٌ مَعَنَا. وَأَمَّا شَرِكَتُنَا نَحْنُ فَهِيَ مَعَ الآبِ وَمَعَ ابْنِهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (١يو ١ : ٣ ، ٤). ومع هذه الشركة ينبع الفرح «لِكَيْ يَكُونَ فَرَحُكُمْ كَامِلاً».

فى المسيح نحن شركاء فى الآلام وشركاء فى التعزية والمجد، شركاء فى الضيق وشركاء فى السعة. شركاء فى الموت وشركاء فى القيامة. ألسنا أعضاء جسد واحد؟، إذن هذه الشركة هى شركة حياة، شركة عملية ولا يمكن إدراكها بالفكر. هذه الشركة فى الروح لأننا كلنا وُلدنا من ذات الروح الواحد. ولما أعطانا جسده لنأكله صارت فينا شركة الجسد الواحد. كل من يحيا ويتمتع بهذه الشركة يعيش السماء على الأرض، يدخل إلى عمق الحب الإلهى الذى جمع المتفرقين إلى واحد.

صرنا نحب الأخوة.. بل «انْتَقَلْنَا مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ، لأَنَّنَا نُحِبُّ الإِخْوَةَ» (١يو ٣ : ١٤). الحب الذى سكبه الروح فينا.. لذلك نحب من كل القلب، نحب الله ونحب القريب، نحب الله ونحب أولاد الله، نحب «مِنْ قَلْبٍ طَاهِرٍ بِشِدَّةٍ» (١بط ١ : ٢٢). ونكرز بهذا الحب العجيب. نحب بلا تحفظ.. «قَلْبُنَا مُتَّسِعٌ» (٢كو ٦ : ١١).

إن ممارسة المحبة المسيحية فى محيط الأسرة يغير من شكل الأسرة ويجعلها مختلفة متميزة، إذ يصير رباط أعضائها ليس رباط اللحم والدم فحسب، بل بالأكثر رباط الروح القدس الواحد.

العمل الذى أعطيتنى قد أكملته

هكذا قال ربنا يسوع لأبيه الصالح.. لأنه هو الكامل الذى أكمل كل شئ. وهكذا كان حتى إلى الصليب حيث صرخ قائلاً: :«قَدْ أُكْمِلَ». (يو ١٩ : ٣٠).

هذا هو الحق الذى يجب أن يكون فينا سواء فى خدمتنا أو سائر أعمالنا، لابد أننا بنعمته نقول له: «الْعَمَلَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ» (يو ١٧ : ٤). كثيراً ما يجوز علينا الفكر إننا قد أنجزنا جزءاً كبيراً وهذا يكفى، ولكن يظل السؤال هل أكملت العمل؟ نقول كل شئ على ما يرام، لقد قاربنا النهاية وهذا عظيم.

– إن الذين يجرون فى السباق إن لم يصلوا إلى خط النهاية لا يعتبرون شيئاً. حتى لو كانوا على بعد أمتار قليلة.

– فكر فى الأمر جيداً.. ماذا عهد الله إليك من عمل؟ ألا تذكر قول المسيح فى المثَل حين قال الأب لأبنه: «يَا ابْنِي، اذْهَبِ الْيَوْمَ اعْمَلْ فِي كَرْمِي» (مت ٢١ : ٢٨).

– لقد أرسلنا الله كل واحد إلى عمله، إلى إرساليته.. وحدد له الزمان والمكان، فوجودنا له غاية عظمى وإرسالية محددة. ويجب أن نراجع أنفسنا ونقول هل أكملت العمل؟ هل أقدر أن أقول قد أُكمل؟

+ ماذا نجاوب ديَّاننا؟ وهَب أننى أدركت أنى على وشك الخروج من هذا العالم، فهل أنا مستعد أن أعطى جواباً؟ أم أقول لقد أكملت معظم العمل ولكنى كنت أحتاج إلى وقت أكثر.

إن لم يكتمل العمل فلا يكون له قيمة، تخيل أعمال الفنانين الموهوبين: رسامين أو نحاتين ولم تُكتمل اللوحات أو التماثيل، هل تحوز على إعجاب أو رضى؟ أو طبيب مُعالج يكتفى بجزء من العلاج مهما كان كبيراً.. هل يرضى عنه أحد؟ أو قائد سيارة أو طائرة يقول لقد بلغنا تسعين فى المائة من المسافة وهذا يكفى.. هل هذا يُعقل؟!

ما بالك إذن وأعمال الله الموكّلة إلينا؟ الأمر يحتاج إلى جدية وأمانة وصبر كثير، يجب أن نكمل توبتنا التى هى أغلى ما فى الوجود، أنصاف الحلول لا تنفع!!

قال أحد الآباء: لو أن عصفوراً مربوطاً بعشرين خيطاً، فإن قطعت معظم الخيوط وبقى واحد فقط فهل هذا يُطلق العصفور حراً؟ إن خيطاً واحداً فقط كفيل بأن يفقده حريته. هكذا إن قدمنا توبة وجاهدنا أن نقتلع جذور الخطايا والآثام ونقلع عن عاداتنا القديمة والأعمال والأقوال الباطلة، ونغير سيرتنا ونتقدم فى مسيرتنا، كل هذا جيد وممدوح ولكن إن أبقينا جذراً واحداً، أوتهاوننا مع صغيرة، فإننا سوف نعانى من نموها ونرتد إلى سيرتنا الأولى.

لذلك يجب أن نقول: قد أُكمل. وأن يكون جهادنا «حَتَّى الدَّمِ ضِدَّ الْخَطِيَّةِ» (عب ١٢ : ٤). أنصاف الحلول أو الرضى بانجاز الجزء الأكبر من العمل هذا لا يعنى الكمال.

+ قال القديس بولس: «قَدْ حَفِظْتُ الإِيمَانَ... أَكْمَلْتُ السَّعْيَ» (٢تى ٤ : ٧). لأنه كان دائماً توّاقاً راكضاً نحو الجعالة ولم يكتف أبداً بما ناله.. ويقول: «لَيْسَ أَنِّي قَدْ نِلْتُ أَوْ صِرْتُ كَامِلاً» (فى ٣ : ١٢)، وكان ينسى ما هو وراء ممتداً فيما هو قدام.

+ «إِنَّ خَلاَصَنَا الآنَ أَقْرَبُ مِمَّا كَانَ حِينَ آمَنَّا» (رو ١٣ : ١١).. من الواجب أن تزيدنا الأيام تقدماً وجدة روحية، وأن تكون حواسنا قد تدربت على التمييز بسبب طول الزمان ونكون قد بلغنا زمن الاثمار. فهل هذا هكذا؟!

+ الكمال يعنى الانتهاء من العمل على وجه الأكمل لا بحسب قياس الناس، بل بحسب قياس المسيح. «لأن لَيْسَ مَنْ مَدَحَ نَفْسَهُ هُوَ الْمُزَكَّى، بَلْ مَنْ يَمْدَحُهُ الرَّبُّ» (٢كو ١٠ : ١٨).

+ تأمل جيداً فى الوزنات التى أُعطيت لك من يد المسيح لكى تتاجر فيها وتربح، وتأمل النصيب والأجر السماوى للعبد الأمين الذى تاجر فربح، إن كان فى الخمس وزنات أو الوزنتين. واسأل نفسك بصدق وتدقيق، هل أكملت العمل؟!

إن كانت وزنات الوقت والسنين أو الزوجة والبنين، أو المقتنيات وما هو بين أيدينا كملكنا، أو الإمكانيات الذهنية والعقلية أو الكفاءات والمهارات، أو الأهل والأصدقاء، أم العمل فى العالم، أو.. أو

إلى آخر هذه الأمور التى تحيط بنا فى الحياة اليومية. فى الواقع أنت لك دور فعَّال فى كل هذا، إذ سمح الله لك أن تتلامس مع كل شئ أحاط بك ومع أى إنسان يتعامل معك.. إذ أنت أظهرت له استعلان المسيح الذى يُظهر بك للناس حبه ورحمته وغفرانه وطول أناته. وبالأعمال الحسنة يرى الناس الله فيك ويمجدونه.

ولكن قبل كل شئ يبقى السؤال: هل أكملت العمل؟!

+ وأقول «مَا دَامَ الْوَقْتُ يُدْعَى الْيَوْمَ» (عب ٣ : ١٣)، فالفرصة أمامك وما لم تبلغه بالأمس جاهد اليوم، فيه متفادياً الأخطاء التى عطلت العمل، ومواظباً على طلب المعونة الإلهية لتتميم عمل الله، ومتأكداً إنه «إِنْ لَمْ يَبْنِ الرَّبُّ الْبَيْتَ، فَبَاطِلاً يَتْعَبُ الْبَنَّاؤُونَ» (مز ١٢٧ : ١) «لأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَامِلُ فِينا أَنْ نُرِيد وَأَنْ نعْمَل مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ» (فى ٢ : ١٣).

لا تدنو ضربة من مسكنك

هذا هو الوعد الإلهى للساكن فى سِتر العَلِيّ، وفى ظل الإله القدير يبيت. فكيف يتجرأ العدو أن يضرب الساكن فى الحصن الإلهى والحضن الأبوى. هذا هو ميراث الذين يحيون فى المسيح يسوع، الذى أعطى لنا أن نتحد به ونحتمى فيه. لقد صرنا «أَعْضَاءُ جِسْمِهِ، مِنْ لَحْمِهِ وَمِنْ عِظَامِهِ» (أف ٥ : ٣٠)، «وَبِظِلِّ جَنَاحَيْكَ أَحْتَمِي (نعتصم) إِلَى أَنْ تَعْبُرَ الْمَصَائِبُ (يعبر الاثم)» (مز ٥٧ : ١).

المجرب لا يكُفْ ولا يهدأ ولا ينام. ولكن واقع الأمر أن المسيح فضح خططه ودحره (دفعه بعنف وطرده) وسحق قوته وأرجعه خائباً مذلولاً، بعد أن أكمل على جبل التجربة كل ما استطاع من تجارب. ولكن القدوس الذى بلا شر صار «مُجَرَّبًا فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا،(ولكن) بِلاَ خَطِيَّةٍ... يَقْدِرُ أَنْ يُعِينَ الْمُجَرَّبِينَ» (عب ٤ : ١٥، ٢ : ١٨).

أنا فى المسيح غالب ومنتصر والعدو ذليل.. أنا فى آدم الأول مغلوب وساقط وميت. «فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ، أَمَّا فِي الْمَسِيحِ فيُحْيَا الْجَمِيعُ» (اكو ١٥ : ٢٢).

لا ولم يوجد إنسان نجَّى نفسه من تجارب العدو الشرير.. ولا ولم يوجد إنسان فى تاريخ البشرية لم يسقطه العدو. الخطية كائنة فى الطبيعة القديمة وهيهات أن يفلت منها الإنسان. الخطية فى الطبيعة القديمة تسبى الإنسان سبياً حتى لو كان من أعظم القديسين.

ناموس روح الحياة فى المسيح يسوع حررنا من «نَامُوسِ الْخَطِيَّةِ الْكَائِنِ فِي أَعْضَائِنا» (رو ٧ : ٢٣). إذن إن كنت أريد أن أغلب لابد أن أتّحد بالغالب. المسيح وحده «خَرَجَ غَالِبًا وَلِكَيْ يَغْلِبَ» (رؤ ٦ : ٢) لأنه هو وحده الذى بلا خطية.

الاتحاد بالمسيح نلناه بالمعمودية ونناله بالتناول.. الثبات فى المسيح قوامه الحب الذى أحبَّنا به. وحِفظ وصايا يسوع هو برهان الحب الوحيد «اَلَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحِبُّنِي» (يو ١٤ : ٢١).

+ «وَلَمَّا أَكْمَلَ إِبْلِيسُ كُلَّ تَجْرِبَةٍ فَارَقَهُ إِلَى حِينٍ» (لو ٤ : ١٣). لا يعرف أحد أعماق الشيطان ولا يتخيل أحد قدراته وخبايا شره. ربنا يسوع المسيح وحده قاس أعماقه وقدراته المُخرّبة المضادة لكل ما هو خير أو صلاح.. أليس هو ضد الله، أى ضد الحق المطلق والحب المطلق. لذلك كان من خطة خلاص الإنسان من براثن هذا العدو القتَّال، أن يجرب المسيح وأن يدخل إلى صميم التجارب، وينتصر عليه وينزع سلاحه المتكل عليه ويُجرّده من وهم النصرة الكاذبة. فالتجارب كانت فعلية واقعية بلا خيال. واستلزم الأمر فى التدبير الإلهى مدة الأربعين يوماً التى قضاها المسيح صائماً على جبل التجربة بلا مأوى وبلا طعام أو شراب. فالعدو شرس قتَّال والفخاخ والتجارب لا حدود لها.

المسيح وهو حامل طبيعتنا فيه ومتحد بها اتحاداً كاملاً غير منقوص، غلب بها كل التجارب التى تأتى على طبيعتنا البشرية. والتى لم ينج منها إنسان، والتى عثر فيها كل إنسان حتى أقدس الآباء والأنبياء. ولكن لماذا غلب المسيح؟ أليس هو القائل «لأَنَّ رَئِيسَ هذَا الْعَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِيَّ شَيْءٌ» (يو ١٤ : ٣٠). المسيح وحده غير الخاطئ.. غير مضبوط بآلام الخطايا.. «مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيَّةٍ؟» (يو ٨ : ٤٦).

لم تكن التجارب أمراً هيّناً ولكنها معارك ضارية، جازها المسيح لأجلنا وسحق الشيطان وأهانه. ثم جاءت سنوات كرازة الإنجيل، أى البشارة المفرحة، إن العدو قد إنكسر وجاءت أزمنة الخلاص والنجاة من يد القاهر الغالب والقادر على كل شئ. لذلك كان المسيح يُخرج الشياطين.. «وَكَانَتْ تَصْرُخُ... فَانْتَهَرَهُمْ وَلَمْ يَدَعْهُمْ يَتَكَلَّمُونَ» (لو ٤ : ٤١).. هذا كان ثمرة جبل التجربة.

ثم ما صنعه يسوع لأجلنا أعطانا إياه، إذ «أَعْطَانَا سُلْطَانًا لِنَدُوسَ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدُوِّ» (لو ١٠ : ١٩). وهكذا أُؤتمنت الكنيسة واستودعها المسيح سر النصرة على الشيطان. وقال للرسل الأطهار: «أَخْرِجُوا شَيَاطِينَ... فَرَجَعَ السَّبْعُونَ بِفَرَحٍ قَائِلِينَ يَارَبُّ، حَتَّى الشَّيَاطِينُ تَخْضَعُ لَنَا

بِاسْمِكَ» (مت ١٠ : ٨ ، ١٧) فأجاب الرب وقال: «لاَ تَفْرَحُوا بِهذَا: أَنَّ الأَرْوَاحَ (الشياطين) تَخْضَعُ لَكُمْ، بَلِ افْرَحُوا بِالْحَرِيِّ أَنَّ أَسْمَاءَكُمْ كُتِبَتْ فِي السَّمَاوَاتِ»(مت ١٠ : ٢٠).

فصار نصيبنا فى السموات هو مصدر الفرح، حيث أعادنا الرب إلى حضن الآب بعد أن كسر شوكة العدو الذى أغوى جنسنا. على أن كسرة الشيطان وهزيمته لا تعنى أبداً أنه تخلى عن مقاومته أو سكت عن حروبه وضلالته أو أصابه اليأس وكفَّ عن الغواية. بل العكس زاد فى عدم رحمته ومقاومته.. وصار «كَأَسَدٍ زَائِرٍ، يَجُولُ مُلْتَمِسًا مَنْ يَبْتَلِعُهُ هُوَ» (١بط ٥ : ٨). ولكن الرسول يوصينا قائلاً: «فَقَاوِمُوهُ، رَاسِخِينَ فِي الإِيمَانِ». فهو مثل أسد ولكنه مُصاب بجرح مميت. لذلك فهو فى هياج عالماً أن له زماناً يسيراً. بل وأكثر من ذلك قال الرسول: «قَاوِمُوا إِبْلِيسَ فَيَهْرُبَ مِنْكُمْ» (يع ٤ : ٧).

هكذا صارت لنا هذه النعمة والنصيب الصالح فى المسيح يسوع: إننا بنعمته نقاوم العدو فيهرب مخذولاً. وهذا ما حدث فى حياة آبائنا القديسين الأبطال الذين «غَلَبُوهُ بِدَمِ الْخَرُوفِ وَبِكَلِمَةِ شَهَادَتِهِمْ» (رؤ ١٢ : ١١)، وتقووا فى الإيمان وجاهدوا الجهاد الحسن ودخلوا إلى الفرح منتصرين.

على هذا يتعين على الإنسان أن يتأكد جداً من التصاقه بالرب وحياته فيه واتحاده به، الذى صار لنا بالمعمودية والمسحة وسر القربان، حتى إذا صار هذا الاتحاد حياً فعَّالاً، ضمن بالنعمة النُصرة فى جميع الحروب، والانفلات من جميع الفخاخ التى ينصبها العدو لينال بغيته من الإنسان.

+ ثمة أمر آخر جدير بالاعتبار أنه كثيراً ما يخدعنا العدو بسبب ضعف طبيعتنا، أو بسبب الإهمال، أو الكسل، أو التراخى وتسويف العمر، فنجد أنفسنا وقد انطلت علينا حيله أو صرنا فريسة لفخاخه أو ضرباته ذات اليمين فى الافتخار والاتكال على الذات أو حب الظهور..الخ. أو الضربات الشمالية التى توقعنا فى الخطايا العمد، أو السهوات من جهة ما هو ضد الروح وضد وصايا المسيح وضد قداسة طبيعتنا المخلوقة فينا بالنعمة. فنحن والحال هكذا نحتاج إلى التوبة، التى هى تجديد الاتحاد وتواصل الثبات فى المسيح، بغسل الخطايا بدموع التوبة وقبول روح التجديد وقوة القيامة من العثرة.

وهكذا تصير أعمال التوبة كمعمودية متجددة. وهكذا يستعيد الإنسان ما فُقد منه ويتعافى فى الروح، ويختبر ثانية فرح النصرة على العدو ومجد القيامة. فإن كان الشيطان لا ييأس فى محاربتنا

مهما تكررت مرات خيبته، فكم بالحرى يكون الحال معنا إذا كنا ممسكين بالحياة الأبدية ومتعلقين باسم الخلاص؟ فمهما تكررت مرات هفواتنا أو سقوطنا فلن نيأس، بل بالحرى نتمسك بمراحم الله الذى يُقيم الساقطين. ونثق أن النصرة بالنهاية ستكون للذى داس الموت وكسر شوكة الجحيم.

كل مرة تسقط، قُم فتخلص.. «لِلرَّبِّ حَرْبٌ مَعَ عَمَالِيقَ مِنْ دَوْرٍ إِلَى دَوْرٍ» (خر ١٧ : ١٦). ولكن يُحسب أن الحرب هى للرب، فمنذ يوم خروجنا من بطن المعمودية وقد تعهدنا وتكرسنا للحياة بحسب المسيح، بعد أن جحدنا الشيطان وكل قواته الشريرة. صارت الحرب إذن من العدو الشرير ضد المسيح الذى صرنا له وهو فينا، وصرنا مُبغَضين من الجميع من أجل الاسم الذى دُعى علينا. فنحن مُضطهدين ليس لأجل ذواتنا، بل لأجل اِنتسابنا للمسيح.

+ أبطل المسيح قوة المجرِّب وسلَّم لنا مفاتيح الانتصار عليه. ليس فى مقدور الشيطان ولا فى سلطانه أن يُجبر أحداً منا على الخطية، أو يسوقه قسراً إلى ارتكاب الشرور. هو خدَّاع وكذَّاب ولكنه صاحب حيلة ودهاء، هو يعرض بضاعته النجسة ويلفَّها بغلاف اللذة ويُزيِّنها للإنسان فتبدو شهية.. كما قيل فى الأمثال: «الْمِيَاهُ الْمَسْرُوقَةُ حُلْوَةٌ، وَخُبْزُ الْخُفْيَةِ لَذِيذٌ» (أم ٩ : ١٧)، هى مياه وخبز ولكن الشيطان المُزوِّر يظهرها للإنسان هكذا حلوة، لكى ينخدع وينجذب بالشهوة نحو الحرام. ولكن كل من يثبت فى إيمان المسيح يستطيع بالنعمة أن يفلت من فخاخه. القديسون فضحوه وأهانوه بكثرة الاتضاع والالتصاق بالرب. هو أب الكبرياء ولكن الروح الوديع الهادئ يغلب كبرياءه.

+ وقد أوصانا الرب بالصلاة أن نطلب إلى الآب ونقول: «لاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ، لكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ» (مت ٦ : ١٣). فالصلاة الجادة والطلبة من القلب هى عامل أساسى فى أن نجد عوناً فى حينه.. فلا يستطيع أحد أن ينقذنا من يد المُشتكى علينا سوى أبونا الذى فى السموات.

وكوننا نطلب عوناً ونجاة، هو اعتراف ضمنى بضعفنا وعدم إمكانيتنا.. لذلك إذ يسحق هو الشيطان تحت أقدامنا، فليس لنا فضل ولا افتخار.. بل نتمسك بالأكثر ونحتمى فى ذاك الذى به «يَعْظُمُ انْتِصَارُنَا» (رو ٨ : ٣٧).

+ تجربة الجوع والخبز هى تجربة طبيعتنا التى تلاحقنا مدى الحياة.. الميل الطبيعى والحاجات الطبيعية ليس فيها خطية.. ولكن العدو الخدَّاع يستغل ما هو طبيعى وينسج منه بالكذب خيالات وخيالات، كلها خداع وكلها تهويل وكذب. وهذا التهويل والتخويف من الموت ليس فيه حق. وقول المسيح: «لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ» (مت ٤ : ٤)، لم يكن أحد من الناس قد عاشها قط.. رغم أنها الحق ذاته.

إننا نستمد حياتنا فى الحقيقة من شخص المسيح الذى هو الكلمة الذاتى، هو مصدر الحياة و«هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ... لِكَيْ يَأْكُلَ مِنْهُ الإِنْسَانُ وَلاَ يَمُوتَ» (يو ٦ : ٤٨ ، ٥٠). صنَّارة المجرب هى الميل الطبيعى، وهو فى كل محاولاته أن يُحرِّف الميل الطبيعى إلى ما هو على خلاف الطبيعة، لأنه يريد أن يُفسد خليقة الله ويُميت ويقتل، بانفصال إرادة الإنسان عن الله.. فيعمل الإنسان إرادته الذاتية منفصلاً عن الحق والحياة.. فيموت.

– تُرى متى أحيًا بكل كلمة تخرج من فم الله؟

– متى استمد حياتى ووجودى واستمرار حياتى منه وفيه وله وبه؟

كيف أتذوق وآكل فأحيا.. وأسمو بنفسى وجسدى وغرائزى؟ إننى استمد خبز الكفاف من يده.. ألم يُطعم الملايين من المن النازل من فوق؟ ألم يُشبع الآلاف من خبز الكفاف حتى فضل عنهم؟

شبع الجسد شئ، وشبع النفس شئ آخر.. الجسد يطلب ما هو أرضى، ترابى حسب طبيعته.. بينما شوق أرواحنا إلى الشبع من بر المسيح. فنحن نجوع ونعطش إليه وهو قد طوَّب الطالبين وجهه والمترجين خلاصه بجوع وعطش نحوه.

الميل الطبيعى لكل ما هو جسدى، هو الشهّية المغروسة فى طبيعتنا لبقاء الحياة كغرائز. قدرة الميول الطبيعية ليس فيها خطية، إنما انحراف الإرادة بعيداً عن الله يحول الشهّية إلى شهوة والشهوة إذا حبلت تجر الإنسان إلى الخطايا، ثم إلى الموت «الشَّهْوَةُ إِذَا حَبِلَتْ تَلِدُ خَطِيَّةً، وَالْخَطِيَّةُ إِذَا كَمَلَتْ تُنْتِجُ مَوْتًا» (يع ١ : ١٥).

+ جوع المسيح بعد أربعين يوماً أفصح عن الشهِّية الطبيعية للطعام دون شهوة أو انحراف. فلما جاء المجرِّب يلعب على هذا الوتر ليجر المسيح من الشهِّية إلى الشهوة، خاب وافتضح وانكسرت سهامه.

وعلى هذا تُقاس جميع حيل الشيطان المجرِّب الذى يدخل من مداخل الميول الطبيعية ليحرِّفها نحو الشرور والسلوك المنحرف بعيداً عن الحق لخدمة الخطايا.

لقد سجل الوحى هذه التجارب الثلاث كنموذج، والواقع أن إبليس جرَّب الرب بكل تجربة وبكل حيلة وخديعة وبكل أسلحته كما هو مكتوب: «وَلَمَّا أَكْمَلَ إِبْلِيسُ كُلَّ تَجْرِبَةٍ فَارَقَهُ إِلَى حِينٍ» (لو ٤ : ١٣). فالتجارب صوَّبها العدو نحو الجسد فى تجربة الخبز والجوع، ثم نحو النفس فى تجربة مباهج العالم والملكيات الأرضية وكل مجدها.. هذه التى تشتهيها النفوس، ثم التجربة الثالثة نحو الروح والروحيات إذا ألقى بنفسه من على جناح الهيكل وحملته الملائكة فلا تُصدم رجله بحجر بحسب وعد الله. فقد صوَّب العدو سهامه بذلك نحو الجسد والنفس والروح أى كيان الإنسان كله. و«فِي هذِهِ جَمِيعِهَا يَعْظُمُ انْتِصَارُنَا بِالَّذِي أَحَبَّنَا» (رو ٨ : ٣٧) ونجَّانا من هذه الفخاخ المنصوبة إذ حطمها وكسرها وأذلَّ فخر المجرِّب، بل وطرده أشر طردة.

+ فى تجربة النفس، قال العدو: «أُعْطِيكَ هذِهِ جَمِيعَهَا (كلها)» (مت ٤ : ٩).. مجد العالم زائل وملكياته وهْم. المجرِّب هو رئيس هذا العالم، كقول الرب.. هو مسيطر على العالم بالخداع والكذب لأنه روح الظلمة. وحينما يقول لأحد أعطيك، فهو كاذب. هو لا يملك لكى يعطى، ولكنه يعد ويكذب. وكم منَّى الإنسان بالأمانى بأن يمتلك العالم، ولكن يكتشف الإنسان أخيراً أنه قبض الريح.. والثمن الباهظ الذى يدفعه الإنسان هو السجود للشيطان والخضوع لروح الظلمة. وهذا هو الهلاك بعينه.

+ رد الرب يسوع بالمكتوب «لِلرَّبِّ إِلهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ». أمَّنَ الإنسان من الخضوع للظلام ليحيا فى النور بالخضوع لمشيئة الله وحده.

أمور تبدو صغيرة ذات مدلولات كبيرة

كنت أصلى القداس الإلهى يوم أربعاء.. والقداس بحسب المواعيد المعتادة يبدأ الساعة ٧ صباحاً وينتهى فى التاسعة. وكان يصلى معى أحد الآباء الكهنة. وفى غالب الأحيان نصلى الأواشى الكبار التى تقال بعد قراءة الإنجيل المقدس– نصليها سراً.. بسبب ضيق الوقت.

أعطيت الأب الكاهن شريكى أن يقرأ الإنجيل المقدس.. وبعد قراءة سر الإنجيل أمام المنجلية.. دخلت إلى داخل الهيكل وصليت الأواشى الكبار سراً.. وأعطيت الشورية للشماس ووقفت داخل الهيكل منصتاً للإنجيل المقدس.

وبينما أنا كذلك جاءنى هاتف فى داخلى يقول.. صلّ الأواشى جهراً بعد كمال الإنجيل. قلت فى نفسى.. لقد صليتها سراً. جاءنى ذات النداء الداخلى مرة أخرى.. كأنّ أحداً يتكلم فى أذنى ويقول.. لا صلها جهراً.. قلت مرة أخرى.. لقد صليتها.

تكرر الأمر معى مرات.. ووجدت نفسى غير قادر أن أتغلب على هذا الفكر أو أن أفلت منه. فلما فرغ أبونا من قراءة الإنجيل المقدس. وكاد الشماس أن يرد المرد الذى يقول.. أنصتوا بحكمة الله.. وبعده يقولون.. بالحقيقة نؤمن. أشرت للشماس ألا يقول.

وتقدمت إلى المذبح وقلت.. اشليل.. وصليت الأواشى جهراً.. ثم ذهبت لأغسل يدى. فبادرنى الأب الكاهن قائلاً.. ألم تُصلِّ الأواشى سراً.. قلت.. نعم. فقال.. لماذا صليتها جهراً.. قلت.. لا أعلم.

صلينا القداس.. وتناولنا الأسرار المقدسة. وشكرنا الله على نعمته التى يعطيها لنا نحن غير المستحقين.. وصرفنا الشعب.

وطلب إلىَّ البعض أن يجلسوا معى.. بعضهم للاعتراف والبعض يسأل أو يستفسر عن شئ. أو يطلب خدمة معينة كالعادة. كان من بينهم إحدى بناتى فى الاعتراف. قالت.. أعترف. وهى سيدة

فى الثلاثين من عمرها، لها ثلاثة أطفال صغار. وهى إنسانة ذات قلب نقى.. بسيطة غاية البساطة، تفحص نفسها وتقدم للرب توبة خالصة جادة. وتعيش بقدر إمكانها حافظة لوصايا المسيح، محبة لجميع الناس ومحتملة بوداعة كل ما يأتى عليها.

فلما جلست بجانبى وجدتها تكاد تطير من الفرح.. متهللة جداً. وفى حال الشكر.. قالت.. «أنا لى ما يقرب من شهر لم أتناول الأسرار المقدسة بحسب ظروفى ومشغولياتى.. قمت فى هذا الصباح وعندى شهوة عارمة وشوق لا يوصف للتناول. ركبت سيارتى لأوصل ابنى للمدرسة. وكنت أقود السيارة مسرعة. وأدرت تليفونى لأسمع الإرسال المباشر من الكنيسة، وكنت أتابع الصلاة ولكنى كنت متأخرة. وكانت شهوة قلبى أن أكون فى الكنيسة من أول القداس. فرفعت قلبى للمسيح ورجوته. وقلت له: خلى أبونا يصلى الأواشى جهراً. وكنت أطلب إلى المسيح فى هذه اللحظات بكل قلبى حتى سال الدمع من عينى. فلما انتهى أبونا من قراءة الإنجيل المقدس.. وكنت مازلت على بعد عشرة دقائق من الكنيسة.. وجدتك تقدمت إلى المذبح وبدأت تصلى الأواشى جهراً. لم أمتلك نفسى من الصراخ والشكر. وتهللت نفسى بفرح عجيب. وقلت يا ربى إلى هذه الدرجة تسمع الصلاة وإلى هذه الدرجة تكون الاستجابة.. حقاً إنك إله عجيب ومُتعجب منك بالمجد».

صحيح إنه أمر بسيط، ولكن قد زاد إيمانى ورجائى وثقتى فى إلهى الذى يسمع الصلاة حتى من الخطاة والمساكين. ويرينى كم هو قريب وكم هو طيب وصالح. كنت أسمعها ولم أتكلم بشئ ولم أعلق بكلمة على الأمر. ثم قلت لها: انتى جاية تعترفى.. قالت.. نعم. وقدمت اعترافها للمسيح بأمانتها وتدقيقها فى توبتها وفحص نفسها والرجوع باللوم على نفسها. وطلبَت ارشاداً.. فقدمت لها بحسب ما اعطتنى النعمة أن اقول لها.. وأحنت رأسها تحت يد الرب وقرأت لها التحاليل وصرفتها بسلام.

وكنت فى داخل نفسى فى ذهول.. فلم يكن الهاتف فى داخلى كذباً.. ولم يكن إلحاح الصوت علىَّ أن أصلى الأواشى ظناً أو وهماً. بل كان حقاً وصدقاً. ولكن إلى هذه الدرجة يكون الاتصال بالله حتى من البسطاء.. وإلى هذه الدرجة يكون الرد السماوى هكذا سريعاً وفعالاً.

ولكن هذه هى مواعيد الله وهكذا ممكن أن نرى تدخل الله ويده الحانية فى التفاصيل الدقيقة فى الحياة اليومية، إن كانت لنا العين البسيطة التى تعاين والقلب النقى الذى يطلب فُيجاب ويقرع فيُفتح له.

وفى آخر النهار تقابلت مع الأب الكاهن زميلى وقلت له.. هل عرفت السر لماذا صليت الأواشى جهراً؟ قال: لا. فحكيت له حكاية هذه الأخت وما فعلته. وقلت له مداعباً: شوف الناس ممكن يشغلونا ب Remote Control من على بعد.. فهم يتصلون بالسماء ويستطيعون أن يحركونا بالنعمة والروح.

+ اجتاحت ضيقة شديدة حياة أحد الأحباء.. كانت نفسيته وكأنه أحاطت بها ظلمة شديدة أو كأنه انحبس فى فخ ولا خروج، فكانت نفسه مُرَّة فيه. فلجأ إلى الصلاة بلجاجة ودموع وطلب بصراخ الليل والنهار. وطالت به الأيام وهو فى ذات الحال. وكأنَّ الصلاة تذهب أدراج الرياح.. وكأنَّ ليس من يسمع. وكانت نفسه تنزوى كل يوم وكاد يدخل فى يأس قاتل.

قال لى: «عندى أيقونة للسيد المسيح أحبها وأحب أن أتطلع إليها. وأصلى أمامها.. وأعلم أنه يسمع لى. فكنت فى هذه الأيام التى اكتنفتنى فيها هذه الضيقة أخلد إلى هذه الأيقونة وأضع رأسى المتعب عليها. وجاءنى فكر داخلى قلته للرب، ولم يكن يخطر على بالى من قبل، كنت أقول للرب.. احتضنى.. خذنى فى حضنك. وظللت على هذه الحالة قرابة شهر كامل. وفى ليلة الأحد الماضى وأنا أقول للرب أمام الأيقونة.. احتضنى. راجعت نفسى وقلت كيف؟! هل ينزل الرب من السماء ليحتضنى؟! ما هذا الذى أنا أطلبه من الرب هذه الثلاثين يوماً.. هل هذا معقول؟

ثم صليت ونمت.. قمت باكراً وحضرت إلى الكنيسة. صليت القداس وشعرت بعزاء فوق العادة. وتناولت من الأسرار.. وكانت كلمات القراءات وكلمات القداس كلها موجهة إلى نفسى.. لم أشعر هكذا من قبل. وبعد القداس الإلهى كنت أنا وزوجتى وبعض الأحباء واقفين.. فسلمت عليهم وجئت أنت إلىَّ وفوجئت أنك تأخذنى فى حضنك.. أنا وحدى دون جميع الواقفين.. ولم تكن هذه عادتك، وعلى مدى سنوات معرفتى بك لم يحدث هذا الأمر.

احتضنتنى بقوة.. لم أملك نفسى.. ارتميت فى حضنك وبكيت.. وأزال الرب الضيق. وقلت: أعظمك يا رب لأنك احتضنتنى.. وعلمت أن الله سمع صوت بكائى. واستجاب طلبتى الغريبة التى كنت أتوسل إليه أن يحتضنى. ولم يقف الأمر عند العمل الداخلى للنعمة أن الرب آزر نفسى وعزَّانى..

بل تجاوزه إلى الفعل الحسى عندما شعرت أن الله أرسلك لتتمم شهوة قلبى. فتقوى إيمانى بالرب وعلمت أنه يسمع صراخ المساكين».

+ فى الحقيقة لست أعلم ما الذى دفعنى حتى أفعل هذا.. شعرت وأنا أسلم على الرجل أن دافعاً أقوى منى يدفعنى أن أفعل هذا، كأن شوقاً ومحبة قوية أريد أن أعبِّر عنها نحوه. مع أن الرجل من عامة الشعب ولم أكن أعلم شيئاً عما يجوز فيه من ضيقة أو ما هى ظروفه. فلما وجدته يبكى على كتفى بدون مقدمات تعجبت. فلما سألته على انفراد، حكى لى ما كان مخفياً عنى. فمجدت الله الذى يعمل أكثر مما نفهم أونسأل. «وَالْقَادِرُ أَنْ يَفْعَلَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، أَكْثَرَ جِدًّا مِمَّا نَطْلُبُ أَوْ نَفْتَكِرُ، بِحَسَبِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ فِينَا» (أف ٣ : ٢٠).

الباب المفتوح

«مَنْ يَعْرِفُ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنًا وَلاَ يَعْمَلُ، فَذلِكَ خَطِيَّةٌ لَهُ» (يع ٤ : ١٧).

إذن ليست الخطية هى التعدى وكسر وصايا الرب. فكثيراً ما يبرر الإنسان نفسه أنه لا يكذب ولا يحلف ولا يسرق ولا يزنى وحسناً أن يكون الإنسان هكذا.. ولكن هل تعلم أن التقصير فى فعل الخير يحسب خطية؟

هذا القول الإلهى يضعنا أمام مبدأ روحى غاية فى الأهمية من جهة العمل الإيجابى. ليس الامتناع عن السلبيات شئ يدعو إلى الافتخار أو التباهى، فإن كنا قد نلنا النعمة وصرنا أولاد الله، فأى ثمر ينبغى أن نثمر.

قال القديس بولس عن هذه الأمور إنها كانت ثمر الطبيعة القديمة الساقطة، وهى التى سلكنا فيها قبلاً متسكعين فى الخطايا والنجاسات، الأمور التى نستحى منها الآن التى ذكرها أيضاً قبيح. أما الآن فلكم حياة مقدسة كأعضاء جسد المسيح ولكم ثمر الحياة الأبدية.

قول الرب فى القديم إن كل شجرة تثمر كجنسها (تك ١ : ١١) هذا قانون إلهى. فإن كنا قد قُطعنا من شجرة البشرية الساقطة وطُعمنا فى الكرمة الحقيقية، وصرنا أغصاناً فيها، فثمر حياتنا لابد أن يكون من نتاج الكرمة.

الرب يسوع قال: «أَنَا الْكَرْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَأَبِي الْكَرَّامُ. كُلُّ غُصْنٍ فِيَّ لاَ يَأْتِي بِثَمَرٍ يَنْزِعُهُ، وَكُلُّ مَا يَأْتِي بِثَمَرٍ يُنَقِّيهِ لِيَأْتِيَ بِثَمَرٍ أَكْثَرَ» (يو ١٥ : ١ ، ٢). لذلك نقول إن ثبتنا فى الكرمة الحقيقية نأتى بثمر ويدوم ثمرنا، وتصير ثمر الطبيعة القديمة من كل أنواع الخطايا غريبة عنا.. نستحى منها، ويستحيل على طبيعتنا الجديدة المولودة من الله أن تتصالح معها.

«هَلْ تَقْدِرُ يَا إِخْوَتِي تِينَةٌ أَنْ تَصْنَعَ زَيْتُونًا، أَوْ كَرْمَةٌ تِينًا؟» (يع ٣ : ١٢). لذلك نكرر ونقول إن خلت حياتنا من ثمر الشرور والخطايا فهذا أمر طبيعى للثابتين فى جسد المسيح الذى هو الكنيسة.

ورجوعاً إلى الآية أن «مَنْ يَعْرِفُ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنًا وَلاَ يَعْمَلُ، فَذلِكَ خَطِيَّةٌ لَهُ»، يتوجب علينا أن نعى بإدراك روحى أن نعلم أن فعل الخير والصلاح، من تقديم المحبة وإنكار الذات وبذلها من أجل الآخر، والخدمة بجميع أنواعها، وأعمال المساعدة والمعونة والاحتمال والغفران... إلى آخر كل الفضائل المسيحية التى رأيناها فى سير القديسين.

بحسب ما أعطت النعمة كل واحد من مواهب واحسانات، فمن يعرف أن يعمل شيئاً من هذه ولا يفعل فقد صار بلا ثمر، وهذا وصفه الروح بأنه خطية. فإن وضعت النعمة أمامنا فرصة لعمل الخير فلنسرع وننتهز الفرصة كقول الرسول: «لاَ نَفْشَلْ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ لأَنَّنَا سَنَحْصُدُ فِي وَقْتِهِ إِنْ كُنَّا لاَ نَكِلُّ» (غل ٦ : ٩). وأيضاً «مُسْرِعِينَ إِلَى حِفْظِ وَحْدانيَّة الروُّحِ بربَاطِ الصُّلحِ الكَامِلِ» (أف ٤ : ٣).

«هَا قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكَ بَابًا مَفْتُوحًا» (رؤ ٣ : ٨).

النعمة دائماً تجعل أمامنا باباً مفتوحاً للدخول وللتحصيل على نعمة أكثر، قد توجد أبواب مقفولة دوننا وهذه نحاول أحياناً الدخول فيها، وإذ نفشل نصاب بالإحباط واليأس أحياناً من كثرة المحاولات وتكرار الفشل.

دع عنك الأبواب المغلقة لا ترتبك بها ولا تيأس. خذ مثلاً داود النبى والملك.. كان قد اشتهى من كل كيانه أن يبنى بيتاً للرب، يضع فيه تابوت العهد وتكون فيه الذبائح والتسبيح، بدلاً من كون التابوت موجوداً فى خيمة، ولكن الرب قال لداود: أنت لا تبنى الهيكل.. لأنك رجل حروب وقد سفكت دماء..

لقد انسد هذا الباب الذى اشتهى داود أن يدخل فيه، وصار من المستحيل أن يعمل أو يكمل هذا الأمر. وكنا نتصور أن يلتمس داود لنفسه الأعذار.. ما دام الأمر كذلك، وما دام الرب قد حرمنى من هذه النعمة فماذا عساى أن أفعل؟

على العكس من ذلك وجدنا داود قد انصرف إلى العمل نحو ذات الغرض من الأبواب الأخرى.. إذ جهّز كل ما يلزم لبناء الهيكل من ذهب وفضة وأخشاب.. إلى آخره. لم يقف عاجزاً أمام باب مغلق، بل بإيجاب استطاع أن يعمل ويعمل.. وسلم سليمان ابنه كل ما يلزم للبناء، بل وسلمه كل المقاسات والتفاصيل والأوزان وأراه المثال كاملاً قائلاً: «قَدْ أَفْهَمَنِي الرَّبُّ كُلَّ ذلِكَ بِالْكِتَابَةِ بِيَدِهِ عَلَيَّ (١ أخ ٢٨: ١٩).

+ تأمل أيضاً فى حياة القديس بولس الرسول لما ألقوه فى السجن، ماذا يفعل هذا الكارز العظيم الذى طاف العالم يبشر بالمسيح. لقد تقيدت حريته بين جدران السجن. وكان من الطبيعى أن يجد لنفسه كل العذر فى أن لا يفعل شيئاً ويستسلم للأمر الواقع، ويقول للرب إن كنت تريدنى أن أخدم أخرجنى من هذا الحبس، لأنى أنا هنا عاجز أن أفعل شيئاً.. لقد كان أمام باب مغلق!!

ولكنه بالروح تجاوز هذا الباب المغلق وانفتح له باب عظيم فعّال، فعكف يكتب رسائله المملوءة من النعمة والحكمة إلى جميع الكنائس، بل وإلى كل أجيال الكنيسة فى كل مكان وزمان.

والعجيب أن رسالته إلى أهل أفسس التى يسميها الدارسون للكتاب المقدس أنها أعلى وأعمق ما كتبه الروح القدس فى العهدين. هذه الرسالة كتبها القديس بولس وهو فى السجن.

لم يقف عاجزاً بائساً ويائساً أمام باب مقفول، بل تجاوزه إلى الأبواب المفتوحة..

توجد أمور لا يستطيع الإنسان أن يعمل فيها شيئاً، ولكن تجد أموراً يستطيع الإنسان بالنعمة أن يعمل فيها.

ما أجمل هذا المثال الموضوع أمامنا. إنه وإن كانت أمور لا نستطيع أن نعمل شيئاً فيها. فهناك أمور أخرى كثيرة نستطيع بالنعمة أن نكملها لمجد المسيح وانتشار ملكوته.

تفكر يا أخى فى قول الرسول: «مَنْ يَعْرِفُ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنًا وَلاَ يَعْمَلُ، فَذلِكَ خَطِيَّةٌ لَهُ» وقل بالنعمة «أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي» (فى ٤ : ١٣).

اعمل فى القليل الذى أمامك.. واعمل بالامكانيات البسيطة التى لك، وتبصَّر فى الفرص التى تُهيؤها النعمة، ولا تنظر كثيراً إلى الباب المغلق أو الأمور التى تصعب أن تتجاوزها. والرب معك.

الثبات فى المسيح

قال الرب يسوع: «اُثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ» (يو ١٥ : ٤).

ما هو الثبات فى المسيح؟ هل هو فكر أو فلسفة أو نظريات أو تأملات؟ أم حقيقة تُعاش وتُختبر وتُحسّ وتُمارس وتصير ركيزة للحياة. وإن كان الأمر كذلك ما هى طبيعة هذا الثبات المتبادل؟

إيمانياً نحن نعى هذا.. نصدقه كل التصديق بيقين الإيمان، ولكن ينقصنا الاختبار العملى فى واقع حياتنا اليومية.

بحسب الإيمان نحن بالمعمودية وُلدنا «ثَانِيَةً، لاَ مِنْ زَرْعٍ يَفْنَى، بَلْ مِمَّا لاَ يَفْنَى» (١بط ٢٣ : ١) وبحسب الإيمان نلنا معمودية الثبات أو التثبيت بسر الميرون المقدس وحلول الروح القدس فينا. وبحسب الإيمان أيضاً كلما نتناول من القدسات وشركة جسد المسيح ودمه الأقدسين يحل المسيح فينا.

أعود وأسأل نفسى هل أنا ثابت فى المسيح فعلاً وحقاً؟

إن الثبات فى المسيح يعنى الصلة الدائمة الحقيقية.. فلا أشعر بذاتى ووجودى إلا فيه. وهذا ينشئ فىَّ منتهى الفرح الذى لا يستطيع أحد أن ينزعه منى. وهنا أسأل نفسى: وهل أحيا أنا هذا الشعور الحقيقى بالفرح الذى لا يشوبه كدر؟

ولكن حقيقة الأمر أنه لا يخلو يوم من الاضطراب أو الانزعاج أو الغضب أو الحزن، ولا تخلو العلاقات مع الناس من الدينونة أو اختلاف الرأى، والإنسان كل يوم عرضة للزلل من كل نوع سواء بالعين أو باللسان أو بالفكر والقلب.

فأين حالة الثبات فى المسيح من كل هذا؟ بل كثيراً ما يسقط الإنسان فى فخاخ الخطايا والتعديات، وما إلى ذلك من إعلاء الذات والكبرياء والغرور وشهوات سائر الأشياء. ويعود الإنسان يسأل: أين الثبات فى المسيح من كل هذا؟

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال.. هل ما اختبره الآباء وتسطّر فى سيرتهم من الثبات فى المسيح بل والاتحاد به وفيه.. هل كان هذا قاصراً عليهم؟ وهل بسبب تفردهم فى البرارى وحياة النسك الشديد تحصلوا على ما تحصلوا عليه؟

وهنا يجب أن ننتبه إلى حقيقة الأمر: أن المسيح إلهنا هو مسيح العالم كله، وهو هو أمسا واليوم وإلى الأبد، وإنه النصيب الشخصى لكل واحد، وأنه ذاق الموت بنعمة الله من أجل كل واحد.

وإنه ليس مسيح الكهنة والرهبان وأصحاب الرتب.. بل هو مسيح الكل ومخلص الكل.

فإن كان الذين تفرغوا لحياة الصلاة والعبادة قد اختبروا وعاشوا حياة الحضور مع الله والثبات فى المسيح، فهم فى الواقع قدموا للكنيسة وللعالم كله دليلاً عملياً قاطعاً، أن الحياة بالمسيح والحياة فى المسيح هى واقع عملى حى، كفيل أن يغنى الإنسان عن العالم وكل ما فيه، وأن يشبع الإنسان حتى لو عاش فى الفقر.

فما دام الأمر كذلك، ومادام قد عاش الملايين من الناس هذه النعمة الفائقة فى الثبات فى المسيح والحياة به، فليس لنا إذن أى عذر ألا نتمتع نحن أيضاً عملياً. لأن الأمر صار معاشاً على مدى آلاف السنين، وفى كل الأجيال وفى كل أماكن العالم، ولجميع مستويات الناس على اختلاف أجناسهم. وهذا يبرهن على أن الأمر ليس بمستحيل بل هو متاح ومستطاع بالنعمة.

+ لقد طلب الرب يسوع من الآب لأجلنا قائلاً: «لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ» (يو ١٧ : ١٥). فدعوتنا إذن أن نكون عائشين فى العالم ولكن فى المسيح يسوع محفوظين من الشرير.

+ فالخلاصة إذن أن الأمر راجع إلى تدبيرنا نحن وطريقة حياتنا وفكرنا وأمر جهادنا وإدراكنا الروحى.

+ فإن كنا منغمسين فى العالميات ليلاً ونهاراً وإن كنا قد صرفنا العمر سعياً وراء الملذات، أو الحصول على الماديات بأى شكل من الأشكال.. وإن كنا قد شابهنا وشاكلنا هذا الدهر، فمن أين لنا أن نذوق ملكوت الله داخلنا؟

فالدعوة إذن إلى أن نفيق من غفلتنا ونتبصر أمر خلاصنا، ونعطى أُذناً صاغية للذى قال: «أَطْلُبُ (أسألكم) إِلَيْكُمْ، أَنَا الأَسِيرَ فِي الرَّبِّ أَنْ تَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ لِلدَّعْوَةِ الَّتِي دُعِيتُمْ بِهَا (إليها) » (أف١ : ٤).

وهنا عندما يرجع الإنسان إلى نفسه ويقول: أقوم أرجع إلى أبى، يجد نفسه فى حضن الآب، وكل ما فقده أو ظن أنه فقده يتجدد له. وهنا يبدأ الإنسان قليلاً قليلاً تنفتح بصيرته الداخلية فيرى الملكوت داخله.

ويحتاج الأمر جدية فى طلب الحياة ومواظبة واعية على الخلود إلى النفس فى المخدع المغلق كقول الرب.. ويبدأ يتحسس بالحس الروحى الداخلى وجود المسيح وحضوره الذى لم يكن للحظة غائباً ولكن السبب كان فى تغربنا فى الكورة البعيدة.

وللحال يبدأ الإنسان فى الاحساس بأنه ثابت فى المسيح، بل والمسيح ثابت فيه. وللحال أيضاً يتخلى الإنسان عن الفكر القديم الذى عاش به سنين، أنه يعمل ويجتهد ويكسب ويبلغ إلى مراده، ولأن ذراعه وفهمه هو السبب فى كل ما هو عليه.

وإذ يجحد هذا الفكر يعود إلى اتضاعه وينسب الفضل كله لصاحب الفضل العامل فينا. وبإدراك ثباته فى المسيح لا يعود يجد سعادة أو فرح إلا فى زيادة الإحساس بهذه النعمة، وهذا يتحقق بأوقات كثيرة يخلو فيها الإنسان مع المسيح، ولا يريد أن يعكر صفو هذه الأوقات أى كائن من كان، وإذ يتدرب الإنسان تصير حواسه الداخلية مرهفة لإدراك حضور المسيح حتى فى خضم زحام مشغوليات الحياة.

+ ويحلو للإنسان سواء مع نفسه أو مع الناس أن يعيش الكلمات الحلوة:

- «لِيَ الْحَيَاةَ هِيَ الْمَسِيحُ» (فى ١ : ٢١).

- «لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَّا يَعِيشُ لِذَاتِهِ، وَلاَ أَحَدٌ يَمُوتُ لِذَاتِهِ. لأَنَّنَا إِنْ عِشْنَا فَلِلرَّبِّ نَعِيشُ» (رو ١٤ : ٧ ، ٨).

- «لأَنَّنَا بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ» (أع ١٧ : ٢٨).

- «لأَنَّكُمْ بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا» (يو ١٥ : ٥).

- «اُثْبُتُوا فِي مَحَبَّتِي. إِنْ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ فِي مَحَبَّتِي» (يو ١٥ : ٩ ، ١٠).

بل يصير كل الإنجيل معاشاً، فتنفيذ وصايا يسوع سهلة، ليست ثقيلة، ونيره هيّن وحمله خفيف.

كل هذا بسبب ثباتنا فيه إذ يصير «هُوَ الْعَامِلُ فِينا أَنْ نُرِيدُ وَأَنْ نعْمَل مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ» (فى٢ : ١٨).